جامعة
المنصورة
كلية الآداب

—

الخطب والوصايا في النثر الإسلامي

دراسة في تجليات النص ومستويات التفسير

إعداد

الدكتور / علي الغريب محمد الشناوي
أستاذ الأدب العربي القديم
ورئيس قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة المنصورة

مجلة كلية الآداب - جامعة المنصورة
العدد الثاني و الخمسون - يناير ٢٠١٣

الخطب والوصايا في النثر الإسلامي

دراسة في تجليات النص ومستويات التفسير

الدكتور/ علي الغريب محمد الشناوي

مقدمة

هذه دراسة تدور حول فقه الجملة في النص النثري من خلال البحث في نظامها في سياق نصها ، حيث تتجلى مظاهر الدلالة التي تنطق بها الجملة في النص النثري من خلال مستويات التفسير المختلفة.

إن مستويات التفسير التي نقصدها -هنا- تعني أن التفسير مرتبط بطبيعة الجملة التي يرد فيها. فتفسير جملة الخبر يختلف عن تفسير جملة الإنشاء، بل وتفسير التركيب الشرطي الجازم يختلف عن تفسير التركيب الشرطي غير الجازم وهكذا.

ولم تنسَ هذه الدراسة وهي ترود حقل النص النثري ، أن وراء كل نص من نصوص النثر الإسلامي مقصدًا إعلاميًا محددًا ، يسهم بالضرورة في صياغة جمل النص في الاتجاه الذي يُجَلِّي إعلامية النص ويكشف عن مقاصده.

وفي ظل هذا التصور جاء اهتمامي بدور أدوات الربط الإضافي في سبك المعنى وحبكه في النص ، وقد أولينا اهتمامنا بحروف العطف وبخاصة: الواو والفاء وثم ، محاولين الكشف عن دور هذه الحروف في إنتاج دلالة النص الكلية. كذلك جاء اهتمامنا بالتركيب الشرطي في النثر النبوي ونثر الراشدين من نحو نثر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

كما أولت هذه الدراسة اهتماماً بأساليب الأمر والنهي والاستفهام من حيث الاهتمام ببيان أثرها في معنى الجملة ، كما ربطنا هذه الجداول الدلالية جميعاً بالصورة الأدبية في النص متى وجدت.

وقد جاءت هذه الدراسة في طورها الأول - وهو تجريبي بطبيعة الحال- مستوعبة للنثر النبوي وأحداث سقيفة بني ساعدة ونثر كل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وقد انتظمت الدراسة بعد المقدمة في ثلاثة أقسام بيانها كالتالي:

القسم الأول وعنوانه: تجليات النص في النثر النبوي وخطب يوم السقيفة، وقد جاء في مبحثين:

أما المبحث الأول فقد تناولت فيه النثر النبوي بين بلاغة النص وفقه الدلالة النحوية.

وفي المبحث الثاني: درست بلاغة النص في خطب السقيفة حيث جاء التحليل مركزاً على بلاغة الجملة ودلالة تركيبها النحوي وأثره في تلك البلاغة من حيث كشفه عن مقاصد المعنى.

وفي القسم الثاني: تناولت بالدرس والتحليل تجليات النص في نثر الصديق رضي الله عنه ، وقد جاء هذا القسم في مبحثين **الأول: عنوانه:** نثر الصديق ومستويات الخطاب وقد قمت في هذا المبحث بتحليل مجموعة من نصوص نثره على النحو التالي:

أولاً: في رحاب خطبة الصديق يوم قبض رسول الله ﷺ.

ثانياً: في رحاب خطبة البيعة.

ثالثاً: خطبة للصديق يتحدث فيها عن أنواع الملوك.

وفي المبحث الثاني: تناولت أدب الوصية في نثر الصديق حيث درست فيه دلالات التراكيب النصية من حيث الخبر والإنشاء والشرط ، وأدوات الربط الإضافي وأثر كل ذلك في بلاغة النص عند أبي بكر رضي الله عنه.

وفي القسم الثالث الأخير: وعنوانه: تجليات الخطاب في نثر عمر رضي الله عنه. درست فيه نثر عمر من خلال مبحثين:

الأول وعنوانه: بلاغة النص وتجليات الخطاب في خطب الخلافة عند عمر رضي الله عنه ، حيث تم تحليل خطب الخلافة جملة جملة مع بيان أثر نظام الجملة النحوي والبلاغي على إنتاج الدلالة الكلية للمعنى في نص كل خطبة.

وفي المبحث الثاني وعنوانه: تجليات النص في خطب عمر رضي الله عنه العامة. تناولت بالدرس والتحليل بناء الجملة البلاغي والنحوي وأثره في إبراز مقاصد المعنى في هذه الخطب ، وقد كشفت الدراسة في مجملها أثر التركيب النحوي للجملة في إبراز مقاصد البلاغة في النص ، كما أبانت أن عزل الحديث عن الصورة البيانية في النص النثري عن الإطار النحوي للجملة ودلالته البلاغية لا يفيد في إبراز دلالات المعنى ومرامييه في النص النثري.

وبعد فهذه دراسة لا تزال في مراحلها الأولى تحاول جاهدة أن تكشف حدود العلاقة بين نظام الجملة النحوي وتركيبها البلاغي ، وأثر الربط الإضافي في تماسك المعنى في النص ، ودلالات هذه الفكرة في إبراز قيمة الصورة البيانية في النص باعتبار أن العلاقات النحوية في النص لها دور بارز في تشكيل التصوير الفني فيه.

فلئن أصابت هذه الفكرة أهدافها ونالت مراميها فبها ونعمت ، ولئن شابها القصور والعجز فحسبها أنها محاولة جادة رغبت في التماس طريقها، والكمال لله وحده ، وعلى الله قصد السبيل ؛

القسم الأول
تجليات النص في
النثر النبوي وخطب يوم السقيفة

المبحث الأول
النثر النبوي بين بلاغة النص
وفق الدلالة النحوية

تمثل خطب النبي ﷺ نموذجاً رفيعاً لبلاغة النص ؛ تتجلى فيه أروع صور الإبداع وإحكام الصياغة الهادفة إلي البلاغ الواضح المعبر عن المعنى المراد دون لبس.

إن العكوف على خطبه ﷺ ينتهي بنا إلي رصد جملة من الحقائق التي تعين على الكشف عن تجليات البلاغة في النص ، وتساعد على رصد الأشكال النحوية للجملة فيه وأثرها في إنتاج الدلالة به.

إن لغة الخطاب في النص تتأثر - دون شك - بمكان إنتاجه ، وقد أدركنا ذلك من خلال تمييز العلماء بين السور المكية والمدنية في القرآن الكريم.

(أما السور المدنية فالأسلوب القرآني جاء مخالفاً لنظيره في السور المكية؛ فالقرآن في السور المدنية قد راعى مقتضيات الأحوال التي هي مناط البلاغة عند العرب.

فإذا علمت أن القرآن المدني اهتم بوضع النظم وتشريع القوانين، ومناهضة اليهود بالحجة والبرهان ، عرفت أن الأسلوب الذي يناسب هذه الموضوعات هو الأسلوب الهادئ ذو النفس الطويل ، ونعني بالنفس الطويل -هنا- أن الأسلوب في الآيات المدنية سوف يعنى بالتوضيح والتفصيل.^(١)

إن دراسة خطب النبي ﷺ يمكن تناولها تناولاً فنياً من خلال النظر في تنوع الأداء والأسلوب في ضوء اختلاف المقامات والأحوال ؛ حيث يمكن رصد خطبه ﷺ في المدينة وبيان ما طرأ على أسلوبها في الأداء من تغير إذا قيست بتلك الخطب التي قالها ﷺ في مكة.

(١) النثر في عصر صدر الإسلام وبني أمية محاولة لتأصيل منهج: ص ١٠.

إن اختلاف كل من المتلقي والمكان الذي أُنتَجَ النص المُتَلَقَّى لهما أثرهما في

النص لا مشاحة.

وقد رأينا أبا هلال العسكري يرصد هذه المسألة في الصناعتين وهو بصدد حديثه عن مراعاة الأسلوب القرآني لأحوال إخراج الكلام حينما يخاطب العرب أو حينما يخاطب بني إسرائيل ، إذ يقول: [قد رأينا الله -تعالى- إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي ، وإذا خاطب بني إسرائيل وحكي عنهم جعل الكلام مبسوطا ... وقلما نجد قصة لبنى إسرائيل في القرآن إلا مطولة مشروحة ومكررة في مواضع معادة لبعده فهمهم وتأخر معرفتهم]^(١)

فإذا ذهبنا إلى تحليل نصوص الخطب التي قالها ﷺ وتوقفنا أمام أحد خطبه التي قالها حين دعا قومه إلى عبادة الله -وكان ذلك بمكة- لوجدنا أن إحكام الصياغة في النص قد تمثل في ظاهرة التوكيد المتصلة بالإخبار عن عبادة الله سبحانه وتعالى حيث:

١- جاء التوكيد في جملة الاستهلال التي تفيد الخبر ؛ حيث حول التوكيد ضرب الخبر من الابتدائية إلى الطلبية ، لينفى لدى المتلقي شبهة الظن في أن المرسل إلى البحث عن الكأ لأهله كاذب في إخباره عنه ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان متلقي الخبر متردداً يقول الرسول الكريم: (إن الرائد لا يكذب أهله)^(٢).

٢- تلا جملة الاستهلال جملة القسم ، وقد جاء المقسم به جملة شرطية غير جازمة تعلق فيها امتناع وقوع الجواب لامتناع الشرط . علماً بأن أهل مكة يعرفون عن النبي ﷺ أنه لا يكذب ، لكن لما كان الأمر يتصل بموروث عبادتهم الثابت وما

(١) أبوهلال العسكري: الصناعتين ، ص ٢١٢ ، تحقيق: مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية.

(٢) جمهرة خطب العرب: ج ١/ص ١٤٧.

يترتب عليه من دهشة سوف تقضي إلي تغيير العادة -وهذا أمر ثقيل على نفوسهم- فطن الرسول الكريم إلي ذلك فأقسم لهم وبني قَسَمَهُ على جملة شرط غير جازمة أفادت المبالغة في نفي الكذب عنه ﷺ حتى يصدقوه! فقال: (والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم).

٣- يلاحظ التوازي في بناء جملتي الشرط التاليتين للقسم بالحق سبحانه، وهما تمثلان مدخول القسم (المقسوم به) ، وقد انتهى التوازي بينهما بالسجع الذي يقرع الأذان ، وجاء شكل الجملتين هكذا:

لو كذبت الناس	لو غررت الناس
جميعاً	جميعاً
ما كذبتكم	ما غررتكم

٤- تكرر القسم بالله ثلاث مرات بما يفضي إلي الإفصاح عن طبيعة الجدل الذي يتميز به أهل مكة .

وقد جاءت جملة القسم مؤكدة بمؤكدتين مما أخرجها من طور الضرب الطلبي للخبر إلي الضرب الإنكاري ، وذلك في القسم الثاني

جاء القسم الثالث ليكشف به الرسول الكريم عن الصورة الحقيقية للوجود الذي لا يمثله بالنسبة لأهل مكة سوى الحياة فقط ، أما الموت فلا يدرون ماذا بعده!

من هنا كان تصويره ﷺ لتلك الحقيقة المنسية من كون أن الموت يشبه النوم، ثم عطف على تلك الجملة جملة أخرى رمى من ورائها إلي إبراز حقيقة البعث الذي يكذبونه ، وصوره من خلال التشبيه بالاستيقاظ يقول الرسول الكريم: (والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبدأ أو نار أبدأ).

٥- أدى العطف في الخطبة -على إيجازها- دور الربط المعنوي بين جمل التوكيد بالقسم المُعْلَظ الذي جسد به الرسول الكريم حقيقة التوحيد وقضية البعث والموت.

٦- جاء بناء الأفعال النحوية في النص لِيُخدم إنتاج الدلالة المطلوبة من خلال صياغة هذه الأفعال في جملة القسم مؤكدة بالنون ومضارعة هكذا:
لتموتنَّ - لتبعثنَّ - لتحاسبنَّ - لتجزؤنَّ .

فهذه الأفعال تقضي صياغتها على هذا النحو إلى إبراز القانون الحاكم للحياة هكذا:

موت ثم ← بعث ثم ← حساب ثم ← جزاء .

ثم يأتي ختام النص بلاغياً من حيث إن القسم الأخير ينتج ثنائية الجزاء الممثلة في :

١- أن الإحساس يفضي إلى الإحسان ← فيفضي إلى الجنة أبداً.

٢- أن السوء يفضي إلى السوء ← فيفضي إلى النار أبداً.

وهذه خطبة فضاؤها المكاني هو المدينة^(١)، وموضوعها وعظي من الطراز الأول ؛ وهو الوقاية من النار . وقد تمثلت بلاغة النص في الآتي :

١- التوجه بعد التنبيه إلى إنتاج النص من خلال النداء العام (أيها الناس)، الذي تلاه الدعوة إلى أن يقدم الكل لنفسه .

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ص ١٤٨.

٢- الالتكاء على التمثيل لتقريب المعنى ؛ وقد قرب الرسول مفهوم الرسالة المتمثل في الإبلاغ من خلال علاقة الراعي بغنمه ، وهي علاقة تقوم على العناية والرعاية من الراعي لغنمه لا يتحقق وجودها إلا من خلال رعايته لها.

٣- الحوار الذي يدور بين الراعي وربيه ، وهو يفضي إلي إدانة الراعي من خلال الاستفهام التوبيخي المبني على الجمل المتعاطفة ؛ حيث يؤدي العطف دلالات عديدة تتمثل في تكريس الإدانة ، وقد تمثل العطف من خلال عطف جملتين جاءتا في صيغة الماضي المعطوف على المضارع . وقد سبق العطف بالواو العطف بالفاء التي أفادت الترتيب والتعقيب بما يفيد أن الإتيان بالرسول يعقبه البلاغ ، وأن البلاغ ترتب عليه عطاءات منها المال ، وتفضل الحق على عباده !

حيث يقول الرسول الكريم: (أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصفرن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم يقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه) ؛ [ألم يأتك رسولي فبلغك ، وآتيتك مالا، وأفضلت عليك ؟]

٤- يأتي التركيب الاستفهامي الثاني ليفسر المعنى المجمل بعد النداء النبوي للناس: ———— فقدموا لأنفسكم ! فيقول: فما قدمت لنفسك ؟ وهو استفهام بلاغي يدعو كل إنسان إلي محاسبة نفسه بعد عطاءات الله له ، وقد حمل الاستفهام - هنا - كل معاني التقرير ؛ لاستنهاض الهمة لبلوغ الهدف.

٥- التمعن في النص يوقفنا على بلاغة العطف بالفاء التي تفيد التعقيب والسرعة بعد السؤال التقريري في قول الرسول الكريم: (فلينظرن يمينا وشمالا، فلا يرى شيئا) ، ثم تأتي بلاغة العطف بالحرف ثم ؛ الذي أفاد التراخي في قوله: (ثم ينظرن قدامه) وَيَعْقُبُ العطف بـ ثم العطف مرة أخرى بالفاء للسرعة في قوله: (فلا يرى غير جهنم) .

وقد أفادت دلالات العطف - هنا - على تنوعه بيان خطورة الموقف الذي يقع فيه الإنسان الذي جحد أنعم الله عليه ، وأوشك أن يصبح مآله إلي جهنم لا مشاحة.

٦- لعب التركيب الشرطي دوراً فاعلاً في إبراز بلاغة النص من خلال أسلوب تنصده (مَنْ) الشرطية التي جاء الجواب فيها مقترنا بالفاء ، وقد ذيل الشرط بلو الشرطية غير الجازمة في قوله: [ولو بِشَقٍّ من تمرّة] حيث يقول [فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرّة فليفعّل].

وانظر إلي هذه الجملة التي أعطت الأمل إلي كلّ من لا يملك التصدّق لأن يقي نفسه بكلمة طيبة ، حيث تفتح باب الأمل لبناء النفس من جديد .

(ومن لم يجد فبكلمة طيبة) ← فإن بها تجزي الحسنة عشر أمثالها إلي سبعمائة ضعف).

وفي خطبته في أول جمعة بالمدينة^(١) يأتي إنتاج النصّ محققاً لأهدافه التي ترمي إلي الوعظ والإرشاد والنصح ، وهي كلها وظائف نصية أصيلة في البيان النبوي.

وقد تجلّت بلاغة النص في هذه الخطبة في الآتي:-

١- افتتاح الخطبة بحملة خبرية حملت معنى الحصر والقصر من خلال قصر المبتدأ (المسند إليه) على الخبر (المسند) في قوله: الحمد لله.

ثم استئناف الكلام من خلال الجملة الفعلية المضارعة الذي تمثل فاعلها في ضمير المخاطب (أنا) والتي حملت معنى الحال والاستقبال في قوله: أحمدُهُ.

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ص ١٤٨.

ثم يأتي دور الربط النحوي الذي يبرز العلاقات الدلالية بين الجمل على مستوى النص . وقد تمثل الربط النحوي - هنا- في الربط الإضافي الذي عبر عنه الخطيب بالأداة (الواو) التي أفادت معنىً جديداً من خلال ما تضيفه الجملة التالية للأداة (الواو) من عنصرٍ إخباري عَطَف من خلاله الاستعانة ثم الاستغفار، ثم الاستهداء ثم الإيمان به ؛ على الحمد مما أدى إلي إحداث تراكم دلالي من خلال هذه العناصر الإخبارية الجديدة ، وقد أسهم هذا التراكم الدلالي في بناء معنى النص على مستوى تفعيل دور الربط الإضافي هنا وفي غير موضع من النص .

والمثال -هنا- قول النبي الكريم ﷺ

(أحمدته وأستعينه وأستغفره وأشهد به وأؤمن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفره.)

٢- من أدواب الربط في النص - هنا - الربط الشرطي بين الجمل المتعاقبة؛ من نحو قول النبي الكريم:

(من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط، وضل ضلالاً بعيداً) ومن نحو قوله أيضاً: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) .

وقد يعتمد الربط الشرطي بين الجمل على الإطالة بين الجمل مما يعطي مزيداً من وضوح الرؤيا والتفسير ، والشرط في هذه الحالة يتخلى عن تعاقب الجمل لتحقيق غايات تفسيرية بلاغية من نحو قوله:

(ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله ، يكن له ذكراً في عاجل أمره ، وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلي ما قدم).

وقد اعتمد البيان النبوي في صياغته للخطبة على التناص القرآني من نحو قوله تعالى (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) [آل عمران: ٣٠] وقوله: (مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) [ق: ٢٩].

ثم يعود الخطيب في نهاية خطبته إلى استخدام الربط النحوي من خلال الربط الشرطي الذي يجسد الملمح الوعظي المطلوب من خلال تعليق كفاية الخالق لكل من أصلح ما بينه وبين الله ، وقد ذيل الربط الشرطي بالإشارة إلى سيادة قدرة الخالق في القضاء على الناس وعجزهم عن القضاء عليه ؛ لأنه يملك منهم ما لا يملكون منه ، فهو الأكبر والعظيم.

وقد أدت الجمل التالية لجملة الشرط دور التفسير الدلالي لقيمة الشرط وقامت بدور التشويق للمتلقي .

يقول الرسول الكريم:

(فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفهِ الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه ، يملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم)

وهذه خطبة يوردها القلقشندي في صبح الأعشى تعالج قضية الموت وما يتصل بها من قضايا فرعية. وقد انتكأت بلاغة الرسول الكريم ﷺ على التنويع الأسلوبي القائم على مقتضى الحال ، حيث جاء الاستهلال جملة ندائية لعب فيها الربط الإضافي دوراً رئيساً في تشكيل الدلالة التي يقصد إليها النص^(١).

فإذا كانت جملة النداء موجهة إلي مطلق الناس ، فإن مدخول النداء جاء حاملاً معنى التمثيل الذي صور غياب الوعي بالموت لدى الناس ، واعتقاد كل واحد

(١) راجع نص الخطبة في جمهرة العرب: ج ١/ص ١٥٣.

أن الموت قد كتب على غيره ، ويحمل هذا التمثيل دلالة إشارية تعني الجهل بحقيقة الموت واللامبالاة به ؛ يدل على ذلك بناء الفعل للمجهول في قوله: (قد كُتِبَ) وتأتي الإشارة إلي الدنيا في شبه الجملة (فيها) في تركيب المُنادى به تحقيراً لها ، ويأتي العطف بالواو ليضيف عنصراً إخبارياً جديداً عن الموت عن طريق الربط الإضافي بالواو، وقد عبر الرسول الكريم عن الموت باسم جديد هو (الحق) ، مؤكداً عن طريق التمثيل أنه قد وجب على غيرنا ، مما يطرح فكرة الخلود لنا والفناء لغيرنا ، ويلعب التوازي بين المنادى به والجملة المعطوفة عليه دوراً بارزاً في إنتاج الدلالة المطلوبة " ومن الملاحظ أن هذا التوازي واقع على مستوى مواقع مكونات البنية النحوية مع ملء المواقع النحوية المتوازية بعناصر معجمية جديدة ، بغض النظر تماماً عن العلاقات الدلالية التي يمكن أن تلاحظ بين مكونات البنية النحوية المتوازنة"^(١).

يقول الرسول الكريم ﷺ:

(كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد

وجب)

وقد توازت هاتان الجملتان مع جملة ثالثة من خلال الربط الإضافي بالواو في قول الرسول ﷺ: (وكان الذي نشيع من الأموات سفر) حيث تحقق التوازي بين هذه الجمل من خلال التركيب التالي:

الأداة: كأن + اسمها + حرف جر + اسم مجرور + حرف جر + مجرور + ضمير مضاف + خبر كأن جملة فعلية ماضية مؤكدة .

(١) محمود محمد سليمان الجعدي: التوازي في ديوان أغاني الحياة لأبي القاسم الشابي دراسة نحوية دلالية ،

ص ٢٢ ، مجلة كلية الآداب ملحق بالعدد الحادي والثلاثين أغسطس ، ٢٠٠٢

غير أن الجملة الثالثة في بناء التوازي -هنا- قد جاء اسم كأن فيها اسم موصول له صلته ← (تُشَيِّع من الأموات) وجاء خبر كأن -هنا- مفردا اسميا وهو كلمة (سفر) ، وبالتالي فإن هذا التركيب قد تغير من خلال إحلال خبر مفرد محل خبر جملة فعلية ، وهذا التغير له دلالاته ؛ فالإخبار بالجملة الفعلية الماضية سواء كانت مبنية للمجهول أو ماضية يعني دلالة التحول وليس دلالة الثبات، لأن إخبارنا عن كون أن الموت قد كتب على غيرنا لا يعبر عن مطلق الحقيقة، وإنما يعبر عن وجهة نظرنا نحن ، وكذلك وجوب وقوعه على غيرنا أيضا لا يعني ثبات هذا الوقوع دائما.

أما التعبير بالاسم (سفر) فيعني الثبات والاستقرار في استقراء حال من يموت؛ فهو كالمسافر بلا عودة .

ويأتي التعبير بالفعل الماضي لتأكيد حقيقة الغفلة التي يعيشها الناس من خلال الأفعال: نَسِينَا - وَأَمِنَّا .

ثم يتكئ الجانب الوعظي على حافز الإغراء والترغيب بالجنة لإصلاح النفس من العيوب ، والإنفاق من المال الطاهر ، ومجالسة أهل العلم وأهل الذل والمسكنة ، وعدم استهواء البدعة.

وقد تحقق هذا المعنى الدلالي من خلال التكرار الأسلوبى في قوله:

١- طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.

٢- طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة، وخالط أهل الذل والمسكنة .

٣- طوبى لمن زكت وحسنت خليقته وطابت سريرته ، وعزل عن الناس شره.

٤- طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنة، ولم تستهوه البدعة.

وهذه خطبة للنبي الكريم تتضح بلاغة النص فيها من خلال استهلالها بأداة الحث والتنبيه المقرونة بالجملة الندائية التي جاء مدخول النداء فيها جملة أمر خرج معناها من إطار الحقيقة إلى دلالة بلاغية دل عليها سياق الرجاء المقرون بتلبية هذه الدعوة قبل الموت في قوله: (ألا أيها الناس توبوا إلي ربكم قبل أن تموتوا)^(١).

ويلاحظ أن الأمر -هنا- قد حَمَلَ معنى الشرط ؛ لذلك فإن جواب الأمر جاء مجزوماً ، وقد تأخر لانشغال البناء بحركة الربط الإضافي المتكرر بالأداة (الواو) ، حيث عطف جملتان على جملة النداء وتأخرت جملة الجواب لجملة الأمر في الجمل الثلاث لدلالة التشويق والإثارة ؛ حيث قال الرسول الكريم:

١- وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا.

٢- وَصِلُوا الذي بَيْنَكُمْ وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة في السرِّ والعلانية .

أما جمل الجواب فقد جاءت على التوالي هكذا:

١- ترزقوا.

٢- وتؤجروا.

٣- وَتُنَصِّرُوا.

وتطرح الخطبة فكرة إعلان الرسول الكريم ﷺ فرض صلاة الجمعة من خلال سياق المقام المكاني والزمني الذي أخذ صبغة التأكيد هكذا:

(١) راجع نص الخطبة في جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٥٣.

(في مقامي هذا ، في عامي هذا ، في شهري هذا) ثم أشار إلى ديمومة الغرض إلى قيام الساعة في قوله: (إلى يوم القيامة) ، ثم جاء التفسير الاحترازي الذي يزيد الأمر وضوحاً ويبرز أهمية هذه الفريضة في قوله: (حياتي ومن بعد مماتي).

ثم تتضح بلاغة القول -هنا- في الربط الإضافي بالفاء المقرون بالربط الشرطي المتحقق في جملة الشرط المصدرة بالأداة (من) وهو ما يسميه المحدثون بالربط السببي الذي يعلق الجواب على الشرط ، فإذا كان الشرط يترتب عليه الجواب فإنه هنا - أي الشرط - معلق على الربط الإضافي الذي لا يمثل زيادة في بنية النص ، وإنما تركيب الشرط يحتاج إليه ، وهو هنا متمثل في جملة اسمية هي (وله إمام) فعلق العطف ترك صلاة الجمعة على وجود إمام ؛ إذ لا تصح إلا به ، ومن ثم يكون للجواب مسوغ وهو نفي جمع الشمل والبركة له !

فقال: ← (فمن تركها وله إمام ، فلا جمع الله له شمله ولا بارك له في أمره) ويلاحظ أنهما جملتان متوازيتان من حيث البنية النحوية .

ثم تلعب أداة التنبيه (ألا) دوراً في إبراز قيمة هذه الصلاة في حياة المسلم. من خلال سياق النفي الذي عطف فيه ثلاث جمل على الجملة الأم في قوله:

(ألا ولا حج له ^١ ألا ولا صوم له ^٢ ، ألا ولا صدقه له ^٣ ، ألا ولا بر له ^٤)

وذلك من خلال الأداة (لا) العاملة عمل إن. وقد جاء البناء في هذه الجمل معتمداً على خاصية التوازي التركيبي الجراماتيكي على حد تعبير الدكتور محمود حجازي حيث يسميه التكرار الجراماتيكي وهو عنده (تكرار للطريقة التي تبنى بها الجملة وشبه الجملة مع اختلاف الوحدات المعجمية التي تتألف منها الجمل).^(١)

(١) علم اللغة العربية بين التراث والمناهج الحديثة: ص ٤٦ ، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٥

ثم يختم النص من خلال تركيبين يحملان حكماً يتصل بالإمامة في الصلاة من خلال نفي إمامة الأعرابي للمهاجر لاختلاف الرتبة والمنزلة ، ونفي إمامة الفاجر للمؤمن في قوله:

١- ألا لا يؤم أعرابي مهاجراً

٢- ألا لا يؤم فاجر مؤمناً

والإي هذا الحد فإن بين الجملتين توازياً نحوياً إلا أن المبني يزيد في الجملة الثانية لأن المعنى فيها تعلق على زوال نفي إمامة الفاجر للمؤمن في ظل قهر سلطان يخاف المؤمن سيفه أو سوطه ، وبالتالي أدت زيادة المبني إلي زيادة المعنى؛ لأن إمامة الفاجر أشد في الخطر من مسألة إمامة الأعرابي للمهاجر لأنها مسألة ليس لها سيادة الأثر لأنها متعلقة بمرحلة من مراحل الإسلام !!

وفي خطبته ﷺ^(١) يوم فتح مكة تعتمد بلاغة النص على مجموعة من المؤثرات البلاغية من نحو: إعلانه افتتاح خطابه بالإقرار بواحدنية الله من خلال أسلوب الاستثناء في قوله: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وهي مقالة ناسبت سيادة الإسلام على مظاهر الشرك من خلال افتتاح الخطاب بالوقوف على باب الكعبة المُشَرَّفَة . ثم إنك تعجب من توالي الأفعال الماضية المُبْرِزة لدلالة التوحيد من خلال الربط الإضافي للجمال الماضية ؛ حيث تحمل هذه الجمل دلالات الإخبار الذي يؤكد طلاقة قدرة الحق في صدق الوعد لرسوله ﷺ ، ونصره له ، وهزيمته للأحزاب وحده ! كل ذلك تلحظه في قوله: (صَدَقَ وَعْدُهُ ، ونَصَرَ عَبْدَهُ ، وهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ)

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٥٤.

وقد أدى الربط الإضافي بين هذه الجمل إلي تراسل المعاني بين الأفعال الماضية فيها ، حيث أدت جميعاً معنى واحداً ، لعب فيه التوازي بين الجمل الثلاثة دوراً دلاليّاً فاعلاً.

ويستوقفنا الأسلوب الثاني في خطبته ﷺ في قوله: (أَلَا كُلُّ مَأْثُورٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدْعَى ؛ فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ إِلَّا سِدَانَةُ الْبَيْتِ وَسَقَايَةُ الْحَاجِّ)

حيث افْتُتِحَتِ الجملة الأساسية في التعبير -هنا- بأداة الحث (أَلَا) التي تفيد التنبيه إلي معنى مهم يريد الخطيب إيصاله للمخاطبين .

ونلاحظ على التركيب بعض النكات البلاغية التي يمكن إجمالها في عدة أمور:

١- أن خبر المبتدأ ← كُلُّ مَأْثُورٍ جاء ضميراً غائباً للمفرد على الرغم من تكرار العطف مرتين على المبتدأ بحرف العطف (أَوْ) الذي أفاد التخيير بإضافة أحد المعنيين إلي المعنى الذي يحمله معنى المبتدأ المعطوف عليه. وبالتالي يؤدي مثل هذا الربط إلي تراكم دلالي يفضي إلي تماسك المعنى في نص الخطبة !

٢- وقد جاء بناء التنبيه من خلال الإخبار بأن هذه المآثر الجاهلية ، أو الدم، أو المال الذي جاء مُعَبِّراً عنه بجملة في قوله (يُدْعَى) التي عبرت عن الثبات والرسوخ ، أقول الثبات والرسوخ جاء بناء التنبيه -هنا- معلقاً على المسند إليه الذي أخبر عنه بالجملة الاسمية (فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ) التي أفادت الدوام والثبات من كون أن مثل هذه المآثر الجاهلية غدت في ظل الإسلام مهانة لا قيمة لها ، تتساوى في ذلك بما يوضع تحت النعال تعبيراً عن صفته !

٣- لوحظ أن البناء النحوي للجملة قد طال وغدت الجملة الممتدة ممثلة لأسلوب استثناء تام مستوفٍ لشروط الاستثناء نحويّاً ، حيث جاء استثناء السدانة وكذا

سقاية الحاج من بين المأثورات التي كان العرب يتباهون بها في قوله: (إلا سيدنة البيت وسقاية الحاج).

وقد لوحظ أن بناء الجملة في الخطبة جاء محكماً نحوياً ليناسب مقام الأحكام التي يعلنها النبي على أهل مكة ؛ من نحو ما نجد في قوله ﷺ: (ألا وقتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا ، فيهما الدية مغلظة ، منها أربعون خلفاً في بطونها أولادها).

حيث حملت هذه الجملة الإخبارية معنى من معاني الأحكام خاصاً بحكم القتل الخطأ من خلال تمثيله له بنوعين ؛ هما العمد بالسوط والعصا . وجاء إيضاح المعنى من خلال تفسير مضمون جملة الخبر في قوله: (فيهما الدية مغلظة) بقوله: (منها أربعون خلفاً) والمقصود بالخلفة الناقة الحامل ، ثم أزال إبهام المعنى عن هذه الكلمة بشرحها بقوله: (في بطونها أولادها) .

ويقدم أسلوب النداء درساً فنياً في الدلالة من خلال حرف النداء (يا) وهو لنداء القريب ، ولا غضاضة هنا في ذلك ؛ فالمقام يستدعيه (فمعشر قريش) هم أهل الرسول الكريم ﷺ .

والنداء أسلوب لا يتكئ على الأداة والمنادى فقط ؛ وإنما تكمن قيمته الفنية فيما تحمله جملة المنادى به من دلالات وإيحاءات تتفقت وتسبح للقارئ بالفحص والتأني والتدبر ، ونحن نلاحظ ذلك من خلال تشكيل هذه الجملة ؛ حيث أخبرنا ﷺ أن الله قد أزال عن قريش نخوة الجاهلية المتمثلة في إعلاء التفاخر والتباهي وإكبار النسب بالآباء ! في قوله: (يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتَعْظُمُهَا بِالْآبَاء).

وتمثل الجملة المستأنفة التالية لجملة المنادى به لوئاً من ألوان التعليل والتبرير الفني حيث يقول: (الناس من آدم وآدم خلق من تراب) .

ويلعب التناسل القرآني دوراً فاعلاً في تأكيد المعنى ودعمه حيث لا معقب بعد القرآن في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

وفي بناء أسلوب النداء في الجملة الأخيرة من الخطبة ما يناسب مقامها وإنتاجها يوم الفتح حيث جاءت جملة المنادى به جملة استفهامية تحتاج إلى جواب في قوله:

(ما ترون أني فاعل بكم ؟) وجاء الجواب:

(قالوا: خيراً ؛ أخ كريم وابن أخ كريم)

ثم امتزج أسلوب النداء من خلال طريقة بنائه على الحس الدرامي القائم على الحوار قالوا: ثم قول الرسول الكريم: قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء !

وفي خطبة الوداع نستطيع أن نرصد ملامح البلاغة في سياق دلالات التراكيب النحوية^(١).

أمّا المقدمة فقد استهلها الرسول من خلال نسق أسلوبى نراه يتكرر بأشكال مختلفة في كثير من خطبه ﷺ ، من نحو ما نجده في مقدمة خطبته ﷺ في أول جمعة جمعها بالمدينة في قوله: (الحمد لله أحمدته وأستعينه وأستغفره وأشهد به وأؤمن به)

أمّا هنا في خطبة الوداع فإن الرسول الكريم قد بنى هذه المقدمة من خلال صيغة الجمع بضمير الفاعلين مع توالي الأفعال المضارعة المجسدة لمعاني الحمد

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٥٥.

والاستعانة والاستغفار والتوبة والاستعاذة بالله ، مع بناء هذا التوالي في ترتيب عطف الأفعال من خلال الربط الإضافي بحرف الواو في قوله:

(الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا)

ويلاحظ على البناء النحوي في العبارة السابقة المزوجة بين الأفعال المضارعة التي تدل على الاستقبال والحال ؛ فهناك ثلاثة أفعال تدل على الحال وهي: نحمد ونتوب ونعوذ ، وهناك فعلان يدلان على طلب الاستقبال بما يناسب مقام العبودية والإذعان ؛ وهما الفعل نستعين ، والفعل نستغفر ، فهما يحملان طلب الاستعانة والاستغفار ، وفي هذا إشارة إلي افتقارنا إلي العون والمغفرة، فيأتي التعبير الكريم ليعبر عن الإلحاح مع السرعة في طلبهما .

ويتضح من القراءة الأولية لنص خطبة الوداع أن ثمة مفتاحاً يوجه خطاب النبي الكريم ، ويلعب دوراً فاعلاً في بلاغته ؛ ويتبدى هذا المفتاح في الصيغة الأسلوبية (أيها الناس) وهي صيغة تحمل النداء بطبيعة الحال وهو نداء موجه إلي الناس جميعاً مما يعني حتماً الإشارة إلي عالمية الرسالة المحمدية.

ويتضح أيضاً من هذه القيمة الأسلوبية أنها تنصدر جملة من الأحكام التشريعية التي أراد الرسول الكريم ﷺ أن يؤكد عليها من خلال تراكيب نحوية ترمي إلي إبراز أوجه كثيرة للدلالة.

وقد بنيت الخطبة من الوجهة الأسلوبية على نسق أسلوبى مكون من: أي المبهمة + حرف التنبيه (هاء) + صفة (الناس).

وقد تكرر هذا النمط الأسلوبى في فضاء الخطبة سبع مرات هكذا: (أيها الناس)، ويغلب الظن أن مقام الحديث قد اقتضى هذا الأسلوب لإحداث التنبيه المطلوب لتلقي مسائل مهمة في التشريع.

ومما يعزز ما ذكرناه أن خبر هذا التركيب قد جاء جملة اسمية منسوخة في خمسة مواضع هكذا:

١- أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم.

٢- أيها الناس : إن الشيطان قد يأس أن يعبد في أرضكم هذه .

٣- أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً.

٤- أيها الناس : إن ريكم واحد.

٥- أيها الناس : إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث

أما الموضعان الآخران فقد جاءت جملة الخبر فيهما اسمية مسبوقة بـ (إن) **المكفوفة عن العمل بما** وقد أدى هذا التركيب المكون من (إن + ما) وظيفة دلالية في إطار سياقه الذي ورد فيه ، وهذان الموضعان هما:

١- أيها الناس : إنما النسئ زيادة في الكفر .

٢- أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة .

وقد أدت جملة الخبر التي حملت معنى القصر والاختصاص فوائد بلاغية عديدة في هذين الموضعين ؛ من نحو اختصاص النسئ بزيادة الكفر لأنه يحمل معنى التدليس ، وقصر الإخوة على الإيمان وحصرها في المؤمن فقط! وقد أفادت (إنما) - هنا- التعريض بأمرٍ هو مقتضى الكلام .

أما في الجمل الخمس السابقة على هذين المثالين ، فإننا نجد أن جملة الخبر في هذا النسق الأسلوبى قد أدت وظيفة الإخبار عن حكم تشريعى جاء في سياق الطلب للتأكيد .

كما يرصد الدرس البلاغى للنص تكراراً أسلوبياً تكرر في حركة تعاقبية لمعان رصدها الرسول الكريم ﷺ وأراد أن ينبهنا إلي خطورتها من خلال الجمع بين:

الاستفهام المسبوق بالتثنية هكذا: ألا هل بلغْتُ؟ وهو يفيد طلب تعيين الجواب المسكوت عنه ضمناً! + النداء المحذوف الأداة باسم الله الذي تم تعويض حذف حرف النداء (يا) بميم مُشدَّدة في آخره هكذا: (اللهم) + جملة النداء التي حملت معنى الأمر: اشهد وخرجت عن مقتضى الظاهر وأفادت الرجاء. وينبغي أن نشير إلى أن جواب الاستفهام لم يعين إلا في الموضع الرابع وفق ترتيب حضور هذا الأسلوب باعتباره سمة خاتمة لسياق إخباري مهم في إطار استعراض الرسول الكريم ﷺ لقضايا التشريع! في قوله:

ألا هل بلغْتُ؟ اللهم اشهد! قالوا نعم، قال: فليبلغ الشاهد الغائب، وما عدا هذا الموضع جاءت الصيغة: ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! دون جواب مباشر للاستفهام! وقد تكرر هذا الأسلوب خمس مرات على مدار الخطبة.

وفي خطبته ﷺ في مرض موته نجده بيني نصها على دنو خفوقه أي دنو غيابه عن الأمة، مما دعاه إلى أن يؤسس في أمته مبدأ محاسبة النفس على أساس إعطاء الحقوق لأصحابها^(١).

وقد جاءت الصياغة النحوية لتراكيب النص متأزرة مع صياغة بلاغته فيه؛ وأول ما يوقفنا ويستأهل انتباهنا فيها قوله: (وإنه قد دنا مني خفوق من بين أظهركم). والخفوق هو الغياب وهو يقصد الرحيل عن الدنيا.

وتنهض الخطبة بلاغيا على منهج الحجاج المنطقي في التعبير عن المعاني.

وقد تأسست الجمل النحوية في النص على أساس التوازي في الصياغة وهو يكرس معاني التكرار التي تلح على إبراز مبدأ المحاسبة وإعطاء الحقوق لأصحابها، ولك أن تلاحظ النمط البنائي النحوي في هذه الصيغ على النحو التالي:

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٥٨.

١- (فمن كنت جلدت له ظهراً ، فهذا ظهري فليستقد منه)

٢- (ومن كنت شتمت له عرضاً ، فهذا عرضي فليستقد منه)

٣- (ومن أخذت له مالاً ، فهذا مالي فليأخذ منه)

ويلاحظ أن الجمل الثلاث في بنائها المتوازي قد تم ربطها بأداة الربط الإضافي الواو التي كرست معنًى محدداً هو القصاص في الجملتين الأولى والثانية ورد المال لصاحبه في الجملة الثالثة . غير أن هذا من زاوية الحقيقة البلاغية ليس هو الأمر الخفي وإنما الأمر الخفي الذي يؤديه نظم الكلام في سياق هذه الخطبة يتجلى فيما تنهض به حروف العطف في هذا المقام من وظائف دلالية أعلى بكثير من الوظائف النحوية التي اعتادت هذه الحروف أن تنهض بها ، وهذا يتبدى لنا من إنعام النظر في هذه الجمل الثلاث من خلال الرابطين الخارجي الذي يمثله الرابط الإضافي الواو والذي أعان دلالياً في إبراز تماسك النص كلياً ؛ وكذا الرابط الداخلي في كل جملة على حدة ، مع ملاحظة أن هذا الرابط هو حرف العطف الفاء، وأن هذا الحرف قد تكرر في البناء الداخلي للجمل الثلاث مرتين في كل جملة.

ونذهب إلي جلاء دلالة الربط العطف الداخلي للجملة الأولى وهي:

(من كنت جلدت له ظهراً ، فهذا ظهري فليستقد منه)

فقد أفادت الفاء -هنا- سرعة تحريك الزمن للقصاص لمن ادعى على رسول

الله ﷺ حقاً ؛ من كون أن رسول الله ﷺ قد جلد له ظهراً .

كما أفادت الفاء أيضاً التعقيب بلا مهلة كما يقول النحاة ، وهم يقصدون بذلك

الرابط بين التعقيب والاتصال بالأول كما يقول بذلك الفيروزبادي^(١).

(١) بصائر ذوي التمييز: ج ١/ص ٣١٦

وفي مقام الجملة التي معنا فإن التعقيب بين فعلى القصاص والجلد بدون مهلة يرجع لقوله ﷺ:

(وإنه قد دنا مني خفوق من بين أظهركم)

حيث تطلب هذا القول منه ﷺ السرعة في إعطاء الحقوق قبل الرحيل، مما سوغ لوجود الفاء رابطاً داخلياً ينهض بأعباء هذه المهمة الدلالية ؛ إذ الفاء كما يقول العلامة محمود شاكر:

(تحرك الزمن في الفعل الماضي ، وتمده ، وتمطله ، حتى تبلغ به أول الزمن في الفعل الذي يليه ، .. وأنت واجد فرقاً لا يوصف في حركة الزمن بين قولك: نام ، وأفاق ، ولبس ثيابه ، وخرج ولقي صديقه وانطلقا . وقولك: نام فأفاق، فلبس ثيابه ، فخرج ، فلقي صديقه فانطلقا)^(١).

ونذهب إلى الجملة الثانية وهي قوله ﷺ:-

(ومن كنت شتمت له عرضاً ، فهذا عرضي فليستفد منه)

إن الملاحظ على البناء النحوي لهذه الجملة والجملة السابقة أن صدر الجملتين قد صيغ في الزمن الماضي:

(كنتُ جلدت) و (كنتُ شتمت)

وأن الفاء قد مدت الزمن الماضي للشم والجلد حتى بلغت به أول الزمن في الفعل المضارع الذي يليه وأنها بذلك وصلت الماضي بالحاضر الذي يتطلب سرعة القصاص ، وأن هذه السرعة كانت بلا مهلة ، وهذا دون شك يؤكد أن (معاني النحو لهذه الأدوات الروابط ، وبلاغتها في الكلام راجعة إلي توخي هذه المعاني، وحسن

(١) مقال للشيخ محمود شاكر بمجلة المجلة عدد نوفمبر سنة ١٩٦٩.

تنزيلها على حسب الأغراض والمقاصد المؤممة ، أي التي يؤمها المتكلم ويتجه إليها ، والاجتهاد في كشف ملائمت هذه الروابط لأغراضها التي سيقى إليها تجلية لجوانب دقيقة في بلاغة الكلام ، وإتقان بنيته ، وإحكام عقده ^(١).

وفي الجملة الثالثة في بناء التوازي على هذا النحو العجيب المقصود بقول الرسول ﷺ:

(ومن أخذت له مالاً ، فهذا مالي فليأخذ منه)

نلاحظ إن الجملة -هنا- لا تختلف في بنائها النحوي عن الجملتين السابقتين؛ ففيها أيضاً التحول من الزمن الماضي حيث توقع وقوع الفعل ، ثم مد هذا الزمن إلى حاضر لقاء رسول الله ﷺ بالناس وهو على منبره يعلن من خلال هذه الجمل عن رغبته في لقاء ربه وهو طيب النفس ، ولن يكون له ذلك قبل إعطاء الحقوق لأصحابها أو تحللهم منها!

وقد ذيلت الجمل الثلاث برابط إضافي أبان عن تماسكها حينما أدى هذا الرابط دوراً دلاليّاً يخبر من خلاله أن هذه المطالب التي أفصحت عنها تلك الجمل لا يترتب عليها شحناء من قبله ﷺ ، وقد أكد ﷺ أن الشحناء ليست من شأنه، وقد جاء هذا التأكيد من خلال الربط العطفى بالفاء أيضاً الذي كانت مطلوبة في هذا السياق للتعقيب بلا مهلة لإزالة اللبس فقال : [ولا يخش الشحناء من قبلي ، فإنها ليست من شأني].

وفي قوله ﷺ:

(من كان عنده شيء فليؤده ، ولا يقل فضوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة)

^(١) محمد أبو موسى: دلالات التراكيب دراسة بلاغية: ص ٣٩٥ - ٣٩٦

تستوقفنا بلاغة العطف من خلال حرف الفاء الذي أفاد سرعة أداء الفعل بدون تعقيب ، كما أن الجملة في سياقها الكلي تحمل معنى الشرط الذي يتكئ على المنطق والتعليل ؛ مع ملاحظة أن الفعل -هنا- في قوله: (فليؤده) مجزوم في جواب الطلب ، وكذلك كان حال الفعل المضارع بعد فاء العطف في الجمل التي حللناها سابقاً في قوله ﷺ: (فليستقد) وقوله: (فليأخذ) وصياغة الأفعال المضارعة في هذه الجمل على هذا النحو لاشك أنها ترمي إلي هدف بلاغي واحد هو إعطاء الحق لأصحابه!

ونعود إلي الجملة التي نحن بصدد تحليلها لنحاول تلمس فقه دلالة العطف في ضوء بلاغته.

أولاً: إن مضمون صدر الجملة يحمل معنى الأمر ، لذلك فقد جزم الفعل الأمر بعد الفاء في جواب الطلب ، ومعنى ذلك أن ثمة سياقاً دعا إلي مقالة الرسول الكريم على هذا النحو من فقه المعنى وتركيب النحو للجملة ، فما المقصود بالشيء هنا ؟ إن الجواب لا يخرج عن مسألة الدين الذي يكون على الإنسان، حيث نفهم ذلك من سياق العطف.

ثانياً: جاء عطف طلب الأداء بصيغة الوجوب بالفاء لأن الأداء يعقب الدين إن وجد . فالعطف -هنا- إنما أوجبه تطابق الكلام من حيث الدلالة واتساق النظام.

ثالثاً: عطف جملة (لا يقل فضوح الدنيا) على جملة ليؤده بالواو والتي أفادت المشاركة في الأثر المترتب على أداء الدين وهو خشية فضوح الدنيا، فالعطف بالواو -هنا- إنما هو عطف ومشاكلة.

رابعاً: عطف الجملة الرابعة وهي قوله:

(ألا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة) ، على جملة (ولا يقل فضوح الدنيا) حيث سبق العطف بالواو التنبيه بالأداة: (ألا) التي أفادت أيضاً الحث، وجاء

العطف بالواو -هنا- للتقرير والتوضيح والتعليل ، إضافة إلى اقتضاء النظم والمشاكلة.

ونصل إلى الجملة الأخيرة في نص خطابه ﷺ وهي قوله: (إن عبداً خيرَ الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده).

إن سياق الجملة يعد من ألوان السياق الموجه الذي اقتضاه مضمون الخطبة، حيث يشير الرسول الكريم إلى رحيله عن أمته وفق تخيير الله له بين البقاء في الدنيا، أو لقائه ! إننا في هذه الجملة أمام لونين من ألوان العطف، هما:

الأول: العطف بالواو في سياق التخيير بين الدنيا وبين ما عند الله؛ فالعطف بالواو هنا كشف لنا عن نسقٍ جديدٍ لعلاقات الوجود في ذهن الخطيب، ولا يجوز أن يكون العطف -هنا- بين النقيضين عطف مشاكلة ونظم ؛ وإن كان ظاهر الكلام يشير إليه ، وإنما الذي جمع بين النقيضين في سياق التخيير إنما هو العطف بالواو الذي أفاد المفاضلة بين الدنيا والآخرة.

الثاني: العطف بالفاء ، حيث أفادت التعقيب بعد الاختيار ، كما أفادت أن الاختيار لا يكون إلا بعد مفاضلة.

ونخلص من كل هذه الأمثلة من خطب الرسول الكريم إلى أن بلاغة العطف في خطبه ﷺ تنهض على إبراز حقوق تعلق المُحدِّث عنه في الجملة الثانية، حيث يكون متعلقاً بالمُحدِّث عنه في الجملة الأولى بمعنى أنهما يكونان بالعطف كالنظيرين والشريكين.

وهذا المعنى الذي ذكرنا بآخرة هو رأي العلوي في الطراز حيث يقول: (من حق المحدث عنه في الجملة الثانية أن يكون له تعلق بالمحدث عنه في الجملة

الأولى، حتى يكونا كالنظيرين والشريكين ، ولا يجوز أن يكون أجنبيا عنه بحيث لا عُلقة بينهما ولا مشابهة بحال^(١).

وفي ردود الرسول الكريم على الوفود التي كانت تفد بين يديه ، الكثير من فقه بلاغة النص ودلالة التراكيب النحوية ، وسوف نستعرض هذه النماذج على النحو التالي:

أولاً: رده ﷺ على خطبة طهفة بن أبي زهير النهدي^(٢).

في هذا الرد يلاحظ أن لغته ﷺ قد جاءت مشاكلة للغة طهفة من حيث الفخامة والوعورة بما يرضى وفود العرب الذين مثلوا بين يديه.

ثانياً: بدأ الرسول الكريم رده بالدعاء لهذا الوفد بالبركة . وقد جاءت صيغة الدعاء من خلال الجملة الندائية (اللهم بارك لهم في محضها) حيث نلاحظ أن لفظ الجلالة هو المنادى ، وأن أداة النداء محذوفة وجوباً في هذا اللون من أساليب النداء ، وأن الشذوذ هو أن تذكر من نحو قول شاعرهم:

إني وإذا ما حدثتُ ألمّا أقول: يا اللهم ، يا اللهم

حيث تكون الميم المشدودة في نداء اسم الله عوضاً عن حرف النداء.

إن الجملة الندائية في أسلوب النداء -هنا- قد جاء العطف فيها من قبيل عطف المفرد على المفرد: ← محضها ومخضها ومذقها.

(١) الطراز: ج ٢/ص ٤٨.

(٢) جمهرة خطب العرب: ج ١/ص ١٦٦.

فالمحض -هنا- هو اللبن الخالص وبالتالي فالدعوة -هنا- بالبركة لقطيع أغنام وفود العرب ، ومخض اللبن أخذ زبده ، والمذق هو اللبن الممزوج بالماء.

وقد قام العطف بالفاء بدور الربط الإضافي ؛ حيث أدى إضافة مفرد (مخضها) وكذا (مذقها) إلى مفرد وهو (محضها) أقول: أدى هذا الربط إلى تراكم الدلالة التي أسهمت بدورها في بناء معنى الجملة.

وقد أدى أسلوب النداء عبر الربط الإضافي إلى عطف جملة على جملة أيضاً، حيث نلاحظ ذلك في قوله ﷺ:

- اللهم بارك لهم في محضها

- وابعث راعيها في الدثر

- وأفجر له الثمد

- وبارك له في المال والولد

وقد قام الربط الإضافي عن طريق العطف بالواو إلى اتساق هذه الجمل وتنظيمها.

ويلاحظ أن هذه الجمل المتعاطفة قد جاءت في صورة الأمر البلاغي الذي خرج عن مقتضى الظاهر إلى علة بلاغية مفادها الرجاء في قوله: ابعث وافجر، والدعاء في قوله: بارك لهم في محضها ، وبارك له في المال والولد.

وثمة ملاحظة أخرى وهي أن الدعاء بالبركة كان في مرة بصيغة الجمع (لهم) أي لوفود العرب ، وأنه -أي الرجاء- في قوله: وأفجر الثمد (مع ملاحظة أن الثمد كلمة تعني الماء القليل) ، أقول: جاء الرجاء للمفرد أي لطفة بن أبي زهير النهدي الذي خطب بين يدي الرسول ﷺ.

كذلك جاء الدعاء بالبركة لهذا الرجل أيضاً ، وكأن دعاء النبي لهذا الرجل جاء على سبيل الحفاوة والترحيب من ناحية ، والإعجاب بفصاحته وبلاغته من ناحية أخرى .

وفي رد الرسول ﷺ تستوقفنا -أيضاً- ثلاث جمل جاءت في سياق الشرط القائم على لغة المنطق والسببية في قوله:

١- من أقام الصلاة كان مسلماً

٢- ومن أتى الزكاة كان محسناً

٣- ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً

إن إنعام النظر في هذه الجمل من الناحية التركيبية يفضي إلي أن بين الجملتين الأولى والثانية توازياً نحوياً وأن الجملة الثالثة في جزئها الأول قد اختلفت عن نفس الجزء في الجملتين السابقتين عليه ، مما جعل التوازي فيها - قياساً على الجملتين السابقتين - يكون جزئياً.

إن دلالة التوازي -هنا- لا تعني دلالة تكرار التركيب النحوي فحسب، وإنما تعني - أيضاً- تعليق إسلام المرء على إقامة الصلاة ، وتعليق اتصاف المسلم بالإحسان على إيتاء الزكاة وتعليق الإخلاص على الشهادة.

وفي كل ما ذكرت - هنا - ما يؤكد على أن بناء الجمل على هذا النحو يفضي إلي مخلصٍ جمالي يرمي إلي إحداث التأثير الفني المطلوب في نفس المتلقي!!

وتستوقفنا الجملة الندائية في ختام رده ﷺ حيث تحمل معنى مهماً يريد الرسول الكريم لوفود العرب أن تعرفه ؛ وهو أن مَوْرِدَيَّ المال للأمة الإسلامية هما: الغنائم والزكاة ؛ أما الزكاة فمعروفة ، وأما الغنائم فقد عبر عنها بقوله:

ودائع الشرك : وهو يقصد بها الغنائم التي يغنمها المسلمون من المشركين وتودع بيت مال المسلمين.

أما وضائع الملك: فهي ما يأخذه عمال المسلمين على الأمصار من خراج وعشور.

ولاحظ قوله ﷺ: **(لا تلطط الزكاة)** أي لا تبطلها أو تقوم مقامها ، أو تمنعها! أما قوله: ولا تلحد في الحياة ؛ فجملة معطوفة على جملة : لا تلطط الزكاة. وهو - هنا - عطف شاكلة ونظام وإشراك في حكم شرعي ؛ وهو أن الغنائم بنوعيتها السابقين لا تمنع من أداء الزكاة ، ولا تجعلكم أيضا تحيدون عن الحق ما دتم أحياء، ولما كان أداء الزكاة من الحق كان لعطف هذه الجملة معنًى في سياقها وكذلك يكون لعطف جملة: **(ولا تتأقل عن الصلاة)** قيمة بلاغية، ففي هذه الجملة نهى عن التقاعس عن أداء الصلاة في وقتها.

وفي تعليقه ﷺ على خطبة ظبيان بن حداد^(١) التي استعرض فيها حياة الأمم البائدة وما كان فيها من عز ومنعة من نحو حديثه عن بني مهلائيل بن قنّيان، وحديثه عن نوح ، وبني هانئ من ثمود ، ملوك حمير .. الخ

أقول: في تعليق النبي ﷺ على كل ذلك تأتي مقالته الموجزة التي نحاول استكناه ما بها من بلاغة في التركيب وفقه في الدلالة.

أما المقالة فهي قوله:

(إن نعيم الدنيا أقل وأصغر عند الله من خُرم بُعِيضة ، ولو عدلت عند الله جناح ذباب لم يكن لكافر منها خَلّاق ، ولا لمسلم منها لحاق.)

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٦٧.

وتتجلى بلاغة التركيب -هنا- في الآتي:

أولاً : في الكناية التي تستفاد من قوله ﷺ:

(إن نعيم الدنيا أقل وأصغر عند الله من خُره بُعِيْضَة)

حيث كنى الرسول الكريم عن حقارة ودناءة الدنيا ، حين جعلها لا تساوي خُره بُعِيْضَة . ولتعظيم قيمة التحقير في بناء الكناية نجد الرسول ﷺ قد استخدم التصغير لطائر هو في الأصل صغير حقير وذلك إمعاناً في التحقير .

ثم إنه جعل الدنيا لا تساوي خره هذه البعوضة: والخرء في اللغة هو السلاح وهو خراج البعوض ونحوها من الهوام ، وهو شيء هينٌ وحقير!

ثانياً : لا بد أن نلاحظ أفعال التفضيل في قوله: (أقل) الذي عطف عليه قوله - أيضاً - : (أصغر) حيث جمع بين القلة والصغر وكرسهما لخرء البعوضة إمعاناً في التصوير !

ثالثاً : يأتي الربط الإضافي بين الجملة السابقة:

(إن نعيم الدنيا)

والجملة التالية وهي قوله:

(ولو عدلت عند الله جناح ذباب لم يكن لكافر منها خلاق ولا لمسلم منها لحاق).

وقد لعبت جملة الشرط غير الجازمة بـ (لو) دوراً آخر في إنتاج الدلالة المطلوبة في هذا الموقف.

ولما كان المخبر عنه في الجملة التي معنا هو عين المخبر عنه في الجملة السابقة من كون أن نعيم الدنيا حقير لا قيمة له ، وقد ازداد معنى تحقير نعيم الدنيا في الجملتين بالجمع بينهما بالواو التي أفادت قوته وظهوره والتصريح به.

ولما كان المعنى في الجملة الأولى يروم تحقير نعيم الدنيا بجعله أحقر من خرم بعيضة ، فإن المعنى في الجملة الثانية التي حملت معنى السببية حين علقت الجواب على الشرط ؛ إذ لو افترض أنها تساوي عند الله جناح ذباب، فإن الكافر لم يكن له منها حظ ونصيب إذ الخلاق: الحظ والنصيب.

ففي الحديث (ليس لهم من الآخرة من خلاق). الخلاق بالفتح الحظ والنصيب. وفي حديث أبيّ : إنما تأكل منه بخلاقك أي بحظك ونصيبك من الدين؛ قال له ذلك في طعام من أقرأه القرآن.^(١)

ولابد أن نلاحظ نفي هذا الحظ والنصيب بـ (لم) التي أفادت التأييد وعطف انعدام فرصة المسلم في اللحاق بحظه من الدنيا لاشتداد التنافس عليها وهي بهذا الحجم.

ولمّا كانت الدنيا عند الله لا تعدل جناح ذباب ، إذن فإن وقوع الجواب مستحيل؛ لأنه معلق على شرطه الذي لن يقع.

ولما كان فعل تحقير الدنيا واحد في الجملة الخبرية الطلبية الأولى وكذا في جملة الشرط ، فإن الشيخ عبدالقاهر قد قال ذلك في دلائله ، بما نصه:

(وإذا وقع الفعلان في مثل هذا في الصلة ، ازداد الاشتباك والافتتان حتى لا يتصور تقدير أفراد في أحدهما عن الآخر)^(٢).

(١) راجع لسان العرب مادة خلق.

(٢) دلائل الإعجاز: ص ٢٢٦.

ويطرح الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وسفانة بنت حاتم الطائي كثيراً من ملامح البلاغة النبوية القائمة على المنطق والحجاج والعبارة المحكمة البناء، المفصحة عن كثير من أوجه الدلالة^(١).

ولا يجب أن نفوت الوقوف أمام كلمة الإمام على عن بلاغتها وهو الذي أعجب بها وأراد أن يطلبها من رسول الله ليجعلها في فيئه. أمّا كلمة الإمام فهي: **(فلما تكلمت أنسيتُ جمالها)**. والأمر يتعلق أيضاً بتعليق الرسول ﷺ على كلامها الموجز البليغ.

فلنقف أولاً أمام كلامها لنحلله ، ثم ندلف إلي رد النبي ﷺ لنبرز بلاغته وفقه دلالاته!

لقد استهلكت سفانة بنت حاتم حديثها بأسلوب النداء وقد أصابت ، حيث استخدمت الأداة (يا) التي تحولت إلي صيحة أو قل إن شئت في مثل مقام سفانة: إلي صرخة رامت بها لفت انتباه الرسول الكريم إلي قضيتها.

وقد ركزت قضيتها من خلال المنادى به الذي بنته من خلال الربط الإضافي بالواو بين جملتين هما: هلك الوالد ، وغاب الوافد ، ثم استخدمت الربط الإضافي بالفاء التي تفيد التعقيب والسرعة والترتيب ، وهي - هنا - قد أغرت بالعطف على السابق المباشر وهو هلاك الوالد وغياب الوافد ، ثم جعلت الربط بالفاء لمعنى الجملة الشرطية التي تعلق إخلاء سبيلها من الأسر حتى لا يشمت بها أحياء العرب على إرادته إن شاء فعل ، ثم تم حذف الجواب وتقديره (فافعل) ، ثم تلت هذه الجملة برابط إضافي آخره علقت به المعنى تعليق تعليل حيث قالت: **(فإني بنت سيد قومي)**.

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٦٩.

تقول: (فإن رأيت أن تُخَلِّيَ عني ، فلا تُشْمِتْ بي أحياء العرب ، فإني بنت سيد قومي).

إن دور الفاء في الترتيب - هنا - (يعني ترتيب المعنى الذي له رأس، وقدم، وأطراف ، أو له جذر ، وفرع ، فلا بد من ملاحظة اكتماله ، حين ترتب عليه معنى آخر له هو هذا التشخيص والاكتمال ، وهكذا يكون بناء معنى على معنى، وترتيبه عليه ، فيه من الدقة والحذر ، ما يحتاج إلى إدراك تلك الشعيرات الخفية التي تربط أطراف الخاطرة برأسها حتى تهيئها لأن تنضم إليها خاطرة أو فكرة ثانية فيها هذه النعومة وتلك الدقة^(١)).

أما بلاغة سفانة التي أعجب بها سيدنا على رضي الله عنه ، والتي جعلت الرسول ﷺ يقول لها:

(يا جارية هذه صفة المؤمن) ، أقول: أما هذه البلاغة فتكمن في الإيجاز والتكيف الدلالي للمعنى فقد أجملت صفات أبيها من خلال صياغة محكمة لعب فيها الربط الإضافي بين الجمل المكتتزة دوراً أصيلاً ، حيث تلاحقت العناصر الإخبارية عبر الجمل المتعاطفة في تراكم الدلالة التي كرسست معاني الكرم من خلال مجموعة من الحقول الدلالية التي عبرت عنها صيغ الأفعال المضارعة الآتية:

١ - يَفْكَ العاني

٢ - يَحْمِي الذمار

٣ - يَقْرِي الضيف

٤ - يَشْبِع الجائع

(١) محمد أبو موسى: دلالات التراكيب دراسة بلاغية ، ص ٣٦٢.

٥- يُفَرِّجُ عَنْ الْمَكْرُوبِ

٦- يَطْعِمُ الطَّعَامَ

٧- يَفْشِي السَّلَامَ

ثم ذيل هذه الأفعال بما ينفي نفياً مطلقاً رده طُلابُ الحاجة أياً كانت. لقد أفاد الربط الإضافي بالاضطراد بين هذه الجمل إيجاب هذه الفعال جميعاً لحاتم الطائي وجعلته يفعلها جميعاً معاً.

وبالنظر إلي بلاغة مقالة الرسول ﷺ لسفانة بنت حاتم نجده يقول: (يا جارية هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه ، خلّوا عنها، فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق).

بالنظر إلي مقالته ﷺ يلاحظ عليها الآتي:

١- أن أسلوب النداء يتصدرها وهو يحمل معاني الإشفاق والإعجاب، كما أنه نادها بقوله: (يا جارية) والجارية هي المرأة الحرة ، وفي ذلك تطمين لها وإبراز لمكانتها في قومها وتأكيد لتكريم الإسلام لكل ذي فعل إسلامي ولو لم يكن مسلماً ، ثم تأتي جملة المنادى به حاملة في طيها إغراءً كبيراً في قوله (هذه صفة المؤمن).

ثم يستأنف ﷺ الكلام دون وصل حيث يفصل التالي عن السابق لانتبئات الصلة بينهما ، حيث إن الجملة التالية لجملة المُنادى به لا يمكن أن تشترك معها في ترتيب المعنى على النحو الذي تنهض به حروف العطف في وصل الكلام!

٢- وتستوقفنا الجملة المستأنفة :-

(لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه)

حيث علق الجواب على شرطه فغدا الترحم على حاتم الطائي رغم كل ما كان يتمتع به من مكارم الأخلاق على النحو الذي أفضت به مقالة سفانة للرسول الكريم ،

أقول: غدا الترحم عليه مستحيلاً لأنه ليس إسلامياً. وقد قامت الجملة الشرطية التالية للجملة الندائية بدور المفسر للمعنى في جملة النداء، وهكذا تأخذ المعاني برقاب بعض إذا توخينا المعاني النحوية التي هي مدار نظم الكلام وآية بلاغته.

٣- يلاحظ أن الربط الإضافي قد وقع فقط في تلك المقالة بين آخر جملتين وهما قوله ﷺ: (خُلُوا عنها ، فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق والله يحب مكارم الأخلاق).

لقد وقع الربط بين الجمل الثلاث في السياق السابق بالفاء أولاً ثم بالواو ثانياً فلماذا ؟

أولاً: احتاج الربط بين جملة: خُلُوا ، وجملة: إن أباهما إلي الفاء لأن أمر الرسول كان على وجه السرعة ، فجاءت الفاء لتفيد التعقيب والترتيب والسرعة في إنفاذ هذا الأمر ، وجاءت الجملة المعطوفة تعليلية تبرر وتسوغ أسباب إطلاق صراحها من الأسر إذ إن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق. ولنا أن نلاحظ تعبير الرسول ﷺ (كان يحب) ولم يقل: كان يفعل مكارم الأخلاق؛ حيث أفاد الفعل (يحب) الإفصاح عن أن فعل الكرم كان يصدر عن حاتم الطائي عن عقيدة واقتناع مثل الحب الذي لا يكون أبداً عن إكراه.

ثانياً: الربط الإضافي بالواو بين حب أبي سفانة لمكارم الأخلاق وحب الله لمكارم الأخلاق ، وهو - هنا - عطف تذييل لا عطف مشاركة ، إذ حاشى الله أن يتقدم حبه للمكارم حب البشر!!

ثالثاً: لنا أن ننعم النظر في أسلوب الأمر في قول الرسول ﷺ: (خُلُوا عنها) حيث أفاد الرجاء بقرينة موجبة لنفاذه وهو على رأس الدولة الإسلامية وقد قامت جملة (فإن أباهما ...) من الأمر مقام العلة والسبب الموجب لتحقيق طل الرسول بإخلاء

سبيل سفانة بنت حاتم الطائي. مما يعني أن سلطة العفو لدى رئيس الدولة معلقة على الأسباب المقنعة به والدافعة إليه أمام جمهور الأمة.

المبحث الثاني
خطب يوم السقيفة
دراسة في بلاغة النص

تمثل خطب يوم السقفة لونا فريداً من خطابة عصر صدر الإسلام؛ فهي نموذج للخطابة السياسية القائمة على الحجاج والمنطق ووضوح المعنى.

وقد تجسّد موقف يوم السقفة من خلال ست خطب لكل من سعد بن عباد وأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وعمر بن الخطاب ، وبشير بن سعد خطبة واحدة وللحباب بن المنذر خطبتان^(١).

من الملاحظ - إن صحت الرواية - أن الأنصار حين اجتمعوا في سقفة بني ساعدة كانوا قد اجتمعوا على تولية سعد بن عباد خلفاً لرسول الله ﷺ، وكان الرجل مريضاً وأنه لجأ إلي ابنه أو بعض بني عمه طالباً منهم أن يتلقوا كلامه ، ثم يسمعه للناس.

ويستفاد من الملاحظة السابقة خطورة الموقف الإسلامي بعد موته ﷺ.

وتكشف لغة الخطاب في خطب يوم السقفة عن رؤيتين لموقفين قد يبدو للوهلة الأولى أنهما متناقضان.

غير أن هذا اللون من الخطب يتكئ على أساليب لا نجدها في غيرها من الخطب ؛ حيث تعكس هذه الخطب حدة الخطاب السياسي الإسلامي وفق معايير كل فريق ؛ فالأنصار يرون أنهم أحق بالأمر ولهم أسبابهم الوجيهة، والمهاجرون يرون أن لهم حق الفضل والسبق وهذا كافٍ كي يتولوا أمر المسلمين بعد رسول الله.

والسؤال الآن: كيف بدت بلاغة هذه النصوص ودلالات التراكيب فيها؟

١- أمّا خطبة سعد بن عباد

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٧٣ - ١٧٨.

فقد بدأها بأسلوب النداء الذي رمى به إلي استمالة الأنصار إلي رأيه في قوله:

(يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب)

وإذا كان النداء -هنا- قد رمى فيما رمى إليه من استمالة الأنصار لمقالة سعد بن عباد ، فإنه أيضا - أي النداء - كان يهدف إلي أهداف أخرى من نحو إخبارهم بمكانتهم في الإسلام ، وتفوقهم في هذا الشأن على جميع قبائل العرب؛ كل هذه المعاني كان يهدف إليها النداء !

وإذا توقفنا أمام مقالة سعد بن عباد التي شرح فيها موقف الدعوة في مكة استبان لنا أنه كان يرمي إلي أن الدعوة لم يكن لها من شأن هناك ، وأنها عزت بالأنصار ، وأن تلك فضيلة وكرامة حُصَّ بها الأنصار دون غيرهم من العرب.

وقد بني هذه المقالة من خلال أدوات الربط الإضافي: الواو والفاء. أما الواو فقد ساهمت في تراكم الدلالة من خلال إضافة أخبار جديدة متنوعة على النحو الذي يبرز مكانة الأنصار ، وقد سبق الربط الإضافي بالواو ربط بالفاء التي أفادت التعقيب والترتيب والتلبية لدعوة النبي الكريم في قومه ، حيث أبانت أنه رغم أن دعوته ﷺ قد استمرت بضع عشرة سنة في مكة ، فإن الذين آمنوا به من قومه كانوا قلة.

وبالتالي توالي العطف بالواو لإبراز أثر هؤلاء القلة في مسيرة الدعوة، حيث اتضح أنهم لم يتمكنوا من الدفاع عن الرسول الكريم ، ولم يعزوا دينه، ولم يتمكنوا حتى من الدفاع عن أنفسهم.

وقد لاحظت أن المسألة - هنا- في الربط الإضافي تتعلق بعطف جمل على جمل في مجال اتساق المعنى ومشاكلته وتبريره.

يقول الرسول الكريم ﷺ:

(إن محمداً - عليه الصلاة والسلام - لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ، وما كانوا يقدرّون على أن يمنعوا رسول الله ﷺ ، ولا أن يعزّوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عمّوا به)

وقد اتكأت بلاغة النص -هنا- على التصوير الفني المؤثر الذي تمثل في صورتين هما:

١- قوله: (حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة)

ففي هذه المقالة يصور سعد بن عبادة الكرامة والمنزلة الرفيعة وهي تساق إلى الأنصار وكأنها قطيع من الأغنام ، وهي صورة توحى بالانقياد والإذعان ، وقد رشح لهذه الصورة بقوله: (وخصكم بالنعمة) ، وهذه الصورة - أيضاً- تجسد مكانة الأنصار الرفيعة حيث خصهم الله بثلاثة أشياء:

(الفضيلة - والكرامة - والنعمة)

٢- وأمّا الصورة الثانية فيمثلها قوله:

(فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه)

وهي صورة تجسد المعاني المعنوية الممثلة في الإيمان والمنع والإعزاز والجهاد، أقول: تجسد هذه المعاني في صورة رزق محسوس ملموس ، وقد بنيت الصورة -هنا- على التعدد الذي تشكل من خلال أدوات الربط الإضافي من خلال حرف العطف الواو ، وقد عطفت الواو -هنا- المعاني المفردة التي شاركت المعطوف عليه (الإيمان) في الحكم الإعرابي وهو النصب.

ويلاحظ أنه يوجد عطف بالواو -أيضا- داخل بنية المعطوف ؛ هكذا:

١- المنع له ولأصحابه

٢- والإعزاز له ولدينه

وقد أدى العطف وظيفه أخرى - هنا - تتمثل في الكشف عن ألوان الرزق الذي رزق الله به الأنصار ، وهو رزق يكرس خصوصية الفضل لهم ويعلي من شأنهم ، ويسوغ لأحقيتهم في خلافة رسول الله من وجهة نظر سعد بن عبادة رضي الله عنه. ولاشك أن معاني الخطبة -هنا- تعنتي أشد العناية بالتركيز على رسم صورة سيادية للأنصار ، تكرر الفضل لهم دون المهاجرين وهي نظرة أحادية دون شك فيها كثير من التجني ، وهي صورة تنهض على التعلييل والمنطق، وهما من ضروب الحجاج السياسي.

انظر إلي قوله: ((فكنتم أشد الناس على عدوه من غيركم ، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغراً حتى أثنى الله - عز وجل - لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راض، وبكم قرير العين)).

أقول: انظر إلي هذه المقالة فستجد المعاني واضحة ، والصياغة محكمة، وقد أدى الربط الإضافي بالواو فيها دوراً فاعلاً في تراكم دلالي مقصود لذاته؛ مفاده أن الأنصار صنعوا كل شيء في خدمة الدعوة الإسلامية ، إلي أن أخضع الله بهم الأرض لرسوله ، وتوفاه الله وهو عنهم راض قرير العين !

أمّا إذا تركنا خطاب سعد بن عبادة وذهبنا إلي خطاب سيدنا أبي بكر الصديق، فسوف نجد أن بلاغة النص جاءت متوازنة وملائمة لسياق الموضوع؛ فقد استهل الصديق حديثه بتنبيه الناس فقال: (أيها الناس) ثم أخبرهم بأنهم المهاجرون فقال: (نحن المهاجرون). ولما كان المقام مقام حجاج وسياسة وعرض كل فريق

مهاجرين أم أنصار نفسه أمام الآخر احتاج الأمر أن يفسر الخطيب معنى كلمة (مهاجر).

وقد فسر الصديق هذه الكلمة من خلال نسق العطف الإفرادي الذي لم يؤلّه عبدالقاهر الجرجاني اهتمامه مثل عطف الجمل ، لأنه نظر إلي عطف المفردات فوجده ليس مجالا لتفاضل الأدباء.

يقول عبدالقاهر:

(واعلم أنّ من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه إلي فكر ورؤية حتى انتظم ، بل ترى سبيله في ضم بعضه إلي بعض ، سبيل من عمد إلي لآلٍ فخرطها في سلك ، لا ينبغي أكثر من أن يمنعها التفرق ، وكمن نضدَ أشياء بعضها على بعض ، لا يريد في نضده ذلك أن تجئ له منه هيئة أو صورة، بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأي العين ، وذلك إذا كان معنك، معنى لا تحتاج أن تصنع فيه شيئا غير أن تعطف لفظاً على مثله كقول الجاحظ:

((جَنَّبَكَ الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سبباً ، وحَبَّبَ إليك التثبت ، وزَيَّنَ في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عِزَّ الحق ، وأودع صدرك برد اليقين، وطرده عنك ذُلَّ اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الذلّة ، وما في الجهل من القلّة))^(١).

والذي يفهم من كلام الشيخ عبدالقاهر هنا (أن نسق المعطوفات المفردة لا يعطي دلالة بلاغية معينة لأنه لا يدل على صنعة ، ولا يكشف عن مهارة، ولا يتصل ببناء عبارة ، مع أن من الواضح أن نسقاً معيناً من المعطوفات قد يعطي دلالة خاصة في مقام تختلف عن نسق آخر ذي دلالة أخرى في مقام آخر... على أن

(١) دلائل الإعجاز: ص ٦٦-٩٧

الذي يقوله عبدالقاهر -هنا- غير صحيح لأن عطف المفردات وما شابهها من الجمل المنضودة - كما نجد في أسلوب الجاحظ مثلاً - يكشف - أيضاً - عن بلاغة خاصة - وإن كان البلاغيون - لم ينبهوا إليها - ويحتاج إلي صنعة وتخير في الترتيب.

وهو درجات مختلفة في الحسن والبلاغة ، لأن صورة النسق العطفى تتفاضل فنياً للمقام والحال^(١).

نعود إلي نسق العطف الإفرادي في حديث الصديق عن المهاجرين، من هم؟ فقال: **(أول الناس إسلاماً وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثر الناس ولادة في العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ)**

إن العطف في مقالة الصديق السابقة بين المتعاطفات يجري على نسق ترتيب الأفضلية من الأعلى إلي الأدنى من حيث الأهمية والقيمة: فالترتيب -هنا- يبدأ بالأعلى رتبة وهو الإسلام ، ثم كرم الحساب إذ فيه قوة للإسلام الوليد، ثم الأوسط في الدار من حيث الظهور بين طبقات المجتمع المكي ، ثم الأحسن من حيث الوجوه، ثم إن المهاجرين من أكثر الناس تناسلاً بين العرب ، ثم تأتي في الختام صلة القرابة برسول الله ﷺ .

وإني آخذك لنقف أمام قول أبي بكر للأَنْصار يوم السقيفة:

(أَسْلَمْنَا قَبْلَكُمْ وَقُدِّمْنَا فِي الْقُرْآنِ عَلَيْكُمْ)

ففي هذه المقالة عطف جملة على جملة ، حيث تفيد جملة المعطوف عليه سمة القبلية في الإسلام ، وتشترك معها جملة المعطوف في الحكم بالمعنى، فالتقدم في القرآن ناتج للقبلية في الإسلام فجاء عطف التقدم في القرآن على الأنصار ليحمل

(١) عفت الشرقاوي: بلاغة العطف في القرآن الكريم ، ص ١٠١-١٠٣

معنى الاستعلاء مكانة وفضلاً ، وهو المعنى الذي أفادته الجملة الأولى، وهذا هو الدور الدلالي الذي تقوم به الواو في الوصل بين الجملتين حيث:

(لا يُتَصَوَّرُ إشراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الإشراك فيه)^(١)

ولذلك فقد عاب عبدالقاهر والبلاغيون قول أبي تمام:

لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

حيث (لا مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى ولا تعلق لأحدهما بالأمر ، وليس يقتضي الحديث بهذا الحديث بذاك)^(٢)

وإذا كان عبدالقاهر والبلاغيون قد رأوا في العطف في بيت أبي تمام السابق عطفاً بغير مناسبة ، فإننا نميل إلي رأي بعض المحدثين الذي رأي أن المناسبة متحققة في بيت أبي تمام ، فجعلها تحت ما أسماه " تراسل ماهيات المعاني، فقال:

(وقد يكون للعلاقة بين (المر) و(كرم) أبي الحسين ما يبررها في تجربة أبي تمام مع الممدوح ، ومع ذلك فإن ما بين المتعاطفين من مفاجأة وتضاد ، ما يريد الشاعر تحقيقه في ذهن السامع ، وهو تضاد قائم بين مرارة النوى وكرم أبي الحسين، والذي يعبر عن مذهب أبي تمام الذي يعتمد فنياً على مقابلة الأضداد كما هو معروف.

(١) دلائل الإعجاز: ص ٢٢٤

(٢) دلائل الإعجاز: ص ٢٢٥

وبين الجملتين: ((النوى صَبْرٌ)) و((أبا الحسين كريم)) من إحياء التراسل بمعنى الواقعية ما لم يلتفت إليه شراح عبدالقاهر:

ذلك أن علمنا (بأن النوى صَبْرٌ) إذا كان يجرى مجرى التقرير والحكم بحسب العرف والتجربة والعادة ؛ بل بحسب التراث الشعبي والأدبي المتوارث في حقيقة الأمر ؛ فإن العطف على هذا المعنى المؤكد بالقسم بقولنا: (وَأَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٍ) ما يلقى بظلال هذه المعاني السابقة على الجملة المعطوفة؛ بحيث يدخل كرم أبي الحسين في مجال إحياءات الجملة السابقة.

وهو مجال ذو جاذبية خاصة ، لأنه يدخل في حكم الواقع المقرر المعروف بل والمقسم به ، وهذا ما أراد الشاعر أن يثبتته في حياة السامع ، وهو مثال لما أسميه... (بتراسيل ماهيات المعاني) أي الأضواء والظلال التي تكتسبها المتعاطفات لمحض التجاور والارتباط وإحياءات التداعي ، وما إليها مما يتصل ببنية التعاطف التي يريد الشاعر خلقها^(١).

ونحن دون شك قد نقلنا - هنا - رأي الدكتور عفت الشرقاوي بوجاهته ونحن نؤمن به لأنه يتفق مع شاعرية أبي تمام . أما الدكتور محمد أبوموسى فإنه يؤكد رأي عبدالقاهر والبلاغيين بوجود خطأ في بيت أبي تمام ، مما يشي بقصور بين في فهم شعر أبي تمام ؛ إذ إن مرجعية العيب - كما يشرحها محمد أبوموسى - لا يمكن التسليم بها بحال من الأحوال ؛ لأنها من قبيل الكلام المرسل المتأنيق ولا سبيل لإعمال العقل فيها ؛ حيث يقول:

(ومرجع هذا العيب عند التحقيق إلي انقطاع أو فتور يعتريان النفس في وقت معالجة القول ، فإذا خالط بالنفس ما هي فيه من تفكير ومعاناة وسيطر الشاعر أو

(١) عفت الشرقاوي: بلاغة العطف في القرآن الكريم ، ص ١٢٢-١٢٣

الكاتب على خلجاته ، وخيالاته وهواجسه ، لا يقع في كلامه والحال كذلك لفظ يتتافر مع سابقة ، أو ينبو به مكانه ، وإنما ترى ألفاظاً تتحدر متجانسة، تجانس الفكر والحس ، منصبة كلها بصبغة واحدة هي صبغة قلبه في حال معاناته ، فإذا رأيت في الكلام لفظاً غريباً كان ذلك مظهرًا من مظاهر انتشار الحس وعدم السيطرة على الحالة والفكرة، وهذا فتور وتخاذل وانقطاع، والفضيلة والعيب -هنا- يتصلان بالموهبة ومدى سطوتها واقتدارها وتمكنها^(١)

ونعود إلي خطبة أبي بكر فنقرأ قوله:

(فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفئ،
وأنصارنا على العدو ، أويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيرا ، فنحن الأمراء وأنتم
الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم ما
منحهم الله من فضله)

ففي هذا المجتزأ من خطبة أبي بكر من سناحات البلاغة ، وتقلت المعاني
البلاغية ما يستأهل الإنعام والنظر .

أولاً: وقع العطف بالفاء أربع مرات

ثانياً: وقع العطف بالواو خمس مرات

ثالثاً: اتسم أسلوب أبي بكر بالإقناع والتبرير المنطقي في بيان منزلة
الأنصار، وإكبار شأن المهاجرين بالقرينة والبيئة.

١- أمّا بلاغة العطف بالفاء فجلاؤها كالتالي ؛ جملة: (نحن المهاجرون)
ارتبطت إضافيا بالفاء بجملة (أسلمنا قبلكم وقُدِّمْنَا في القرآن عليكم) وقد أفادت الفاء

(١) دلالات التراكيب دراسة بلاغية : ص ٢٩١-٢٩٢

-هنا- التعقيب والترتيب ؛ فقد ارتبط اسم الذين أسلموا أولاً مع الرسول ﷺ باسم المهاجرين ، وهم - أيضاً- الذين قُدِّموا في القرآن على الأنصار ، إذ أبرز العطف بالفاء - أيضاً- بيان الرتبة للفريقين: المهاجرين أولاً ، والأنصار ثانياً؛ قال تعالى:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ)

أما جملة: (فجزاكم الله خيراً)

فقد أفادت الفاء فيها ترتيب الجزاء على الأخوة ، والاشتراك في الفئ ومناصرة المهاجرين ضد أعداء الإسلام ، والإيواء والمواساة.

أما جملة: (فنحن الأمراء وأنتم الوزراء)

فقد أفادت الفاء - أيضاً- الترتيب والتعقيب ، حيث تم بناء معنى جملة (نحن الأمراء) على كل ما سبق ذكره في صدر الخطبة ؛ فالإمارة لا تكون إلا للأعلى رتبة ، أما الوزارة فتكون لمن يليه في الرتبة في قوله: (وأنتم الوزراء) فهذا العطف بالواو من قبيل عطف المشاركة مع الترتيب لاتفاق المعنى!

أما جملة (فلا تنفوسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله)

فقد ارتبطت هذه الجملة بالجملة السابقة عليها ، وهي قول أبي بكر: (لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش) ، وجاء الارتباط بالفاء لينتهي الأنصار عن حسد المهاجرين الذين منحهم الله هذا الفضل.

وكأن المعنى: يقول: إذا كانت تلك منزلة هذا الحي من قريش بين العرب فلا يتوجب عليكم أن تحسدوهم على تلك المنزلة لأن هذه المنزلة ، فضل من الله بمنحه ما يشاء من عباده.

ونذهب إلي خطبة الحباب بن المنذر وهو ممثل الأنصار أيضا في لقاء السقيفة، والملاحظة الأولية على هذه الخطبة تتمثل في ارتفاع حدة الخطاب على مستوى التعبير اللغوي ، ولك أن تلاحظ ما يلي:

١- أن الخطبة قد افتتحت بأسلوب النداء الذي هدف إلي الاستمالة والتحريض، حيث جاء حرف النداء (يا) معبراً عن صرخة مدوية ألهب بها الحباب مشاعر الأنصار ، وأن المنادى به جاء جملة طلبية (أمر).

٢- أن الخطبة تشكلت بنائياً من جملة واحدة ؛ هي جملة النداء التي ارتبطت في سياق الوصل البلاغي بجمل أخرى معللة لسياق الأمر الذي كان مناط النداء من خلال أدوات الربط الإضافي المتمثل في أداتين هما:

الفاء والواو ؛ أمّا الفاء: فقد تصدرت بداية الوصل بين جملة النداء وبقيّة جمل الخطبة، وختمت النص في موضعين ترتب ثانيهما على الأول في قول الحباب:

(فإن أبي هؤلاء إلا ما سمعتم ، فمنّا أمير ومنهم أمير.)

٣- أمّا قوله : (يا معشر الأنصار : املكوا عليكم أمركم ، فإن الناس في فيئكم وفي ظلكم ، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ، ولن يصنر الناس إلا عن رأيكم)

أقول في هذه المقالة يتجلى مناط البلاغة من خلال:

١- صيغة الأمر البلاغي (املكوا عليكم أمركم).

حيث يدعو الأمر الأنصار إلي الالتماس والتوحد في طي الرجاء، وأبان الربط الإضافي بالفاء ملحقاً بلاغياً جديداً في سياق تمدد المعنى الدلالي للتركيب من خلال الوصل بين جملتين ، حيث أفادت الفاء الترتيب والتعقب وسرعة الانضباط الذي يتوجب على الأنصار التحلي به ؛ فوجود المهاجرين وهم من بين الناس عموماً

في ظل الأنصار في المدينة ينعمون في خيرهم مترتب على امتلاك الأنصار لزمم الأمر.

٢- يأتي بعد ذلك الارتباط العاطفي الجديد بالواو التي ربطت عدم اجترأ الناس على خلاف الأنصار لأن هذا الاجترأ فيه ضياع لوجودهم في ظل في الأنصار والعيش في كنفهم.

٣- وتأتي الجملة الثالثة (ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم)

حيث نجدها معطوفة على الجملة الأولى ، وليس الثانية لأن الثانية مرتبطة أيضاً بالجملة الأولى (فإن الناس في فيكم وفي ظلكم).

أما ارتباط قول الحباب: (ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم) بالجملة السابقة: (فإن الناس ...) بالواو فهو ارتباط وفق نظرية التشريك الحكمي لوجود الجهة الجامعة الممثلة في تعذر صدور الناس ومنهم المهاجرون بطبيعة الحال عن رأي يخالف رأي الأنصار لأنهم ينعمون بخيرهم ويعيشون في ظلمهم ، ومن تكن حياته هكذا لا يملك رأياً ولا قراراً ؛ فالجملة الثالثة مثلها مثل الجمل الثانية من حيث إن المعنى فيهما واقع بسبب من المعنى في الجملة الأولى المصدرة بالفاء العاطفة !

كما يلاحظ أن جملة الأمر (أملكوا...) قد زيلت بجملة اسمية منسوخة هي (فإن الناس ...) وما عطف عليها وأن هذه الجملة قامت من الأمر مقام العلة والسبب الذي يمثل قرينة الدعوة إليه!

ومن بلاغة التحفيز وشحذ الهمم أن يعدد الخطيب صفات مَنْ يخاطبهم، ويأتي هذا التعديد من خلال بلاغة الربط الإضافي بحرف الواو ؛ حيث تتراكم المعاني الإخبارية لترسم لوحة يرى فيها الحباب بن المنذر نوعاً لتفوق الأنصار على المهاجرين ؛ حيث جمع لهم العز والثروة والعدد والمنعة والتجربة والبأس والنجدة.

يقول الحباب: (أنتم أهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة، وذوو البأس والنجدة.)

وقد بلغ التحفيز مداه عندما أغرى الخطيب الأنصار قائلا: (وإنما ينظر الناس إلي ما تصنعون.)

فقد أشرك هذه الجملة مع جملة أنتم أهل العز والثروة ... إشراكا أساسه فكرة المناسبة الجامعة ؛ حيث تفيد الجملة التي مَعَنَا أن الناس تنظر إلي ما سوف يصنعه من امتلاك هذه المقومات ، فعطف بذلك ما ينتظره الناس من فعل محتمل للأنصار على صفاتهم ، إذ بين الفعل ومثل هذه الصفات مناسبة أكيدة.

وأنت ترى الحباب ينهي الأنصار عن الاختلاف ، ويربط بينه وبين فساد الرأي ربطا إضافيا بالفاء التي رتبت النتيجة على السبب ، حيث علقت فساد الرأي على الاختلاف ، ثم عطفت انتقاص الأمر على فساد الرأي إذ بينهما مشاركة، فالمعنى فيهما واحد حيث انتقاص الأمر هو عين فساد الرأي ، ثم عطف مرة أخرى بالفاء التي رتبت وأعقبت ، وأفصحت عن رفض المهاجرين سماع مثل هذا الكلام الذي يفتنت على الحقيقة ، ولذا تراه يعود مرة أخرى في ختام الخطبة ليكرر العطف بالفاء التي أفادت التعقيب بلا مهلة فقال: (فمنا أمير ومنهم أمير) وكأن جملة المعطوف أفادت -هنا- التعبير عن رغبة الأنصار في أن يكون أضعف الإيمان في مسألة حكم المسلمين أن يشاركوا في الحكم أيًا كان الأمر؛ يقول الحباب:

(ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وينتقص عليكم أمركم ، فإن أبي هؤلاء إلا ما سمعتم ، فمننا أمير ومنهم أمير.)

ونذهب إلي جلاء بلاغة النص في خطبة سيدنا عمر التي رد بها على الحباب بن المنذر ، فنجده قد صدرها بقوله:

(هيهات لا يجتمع اثنان في قرن)

حيث تشكلت الجملة هنا من: اسم فعل ماض (هيهات) بمعنى بُعد: - وهي تفيد - هنا - استحالة أن يتحقق كلام الحباب مهما كانت مسوغاته التي ذكرها، كما تلا اسم الفعل جملة فعلية منفية وهي قوله: (لا يجتمع اثنان في قرن)، حيث يَرُدُّ بها على قول الحباب في ختام خطبته: (فمنا أمير ومنهم أمير)، ومفاد جملة عمر - هنا - أن الأمة لا يصلح لها إلا قائد واحد.

ولما كان حديث عمر - رضي الله عنه - قد جاء في إطار صراع وناقش سياسي يقرع فيه كل فريق حجة الفريق الآخر أقول: لما كان الأمر كذلك لجأ عمر إلي أسلوب القسم ليلقي من خلاله خبره حتى لا يشك شاك في مفاد حديثه فقال :

(والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمنع أن تؤلى أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم).

ونحن نستقرأ قسم عمر فنجدته يتكئ على صوت العقل ، ولغة المنطق، ولم يقع فيما وقع فيه خصمه السياسي الحباب من استعراض للقوة من خلال لغة انفعالية تعتمد على الاستعلاء والتكبر!

وتستوقفنا الجملة الأخيرة في رد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على الحباب ؛ حيث بناها الخطيب على أسلوب القصر من خلال الاستثناء الذي أفاد حصر وقصر النزاع على سلطان سيدنا محمد ﷺ وإمارته على كل مُدَلِّ بباطل أو مائل لإثم أو متورط في هلكة !

يقول عمر: (من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته - ونحن أولياؤه وعشيرته - إلا مُدَلِّ بباطل ، أو متجانف لإثم ، أو متورط في هلكة).

ويلاحظ على العبارة السابقة وقوع العطف بين المفردات فيها بحرف العطف (أو) وهي كما يقول عبدالقاهر: (تردد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما لا بعينه)^(١).

فقد أفاد الربط الإضافي (بأو) في العبارة السابقة التخيير بين أفعال الباطل والميل للإثم والتورط في الهلاك ، ومن ثم فقط عطف الخطيب على كل مُدَلِّ بباطل كل مائل للإثم أو المتورط في الهلاك عطف تخيير في سياق التنازع على سلطان محمد ﷺ وإمارته ، وكأن من يفعل فعلا واحدا من بين هذه الأفعال الثلاثة فهو متورط في تنازع لا حق له فيه.

وقد تأكد هذا المعنى من خلال الجملة الاسمية المعترضة التي أكدت فساد هذا التنازع لأن المهاجرين أولياؤه وعشيرته ! وبمعنى هذه الجملة يبطل التنازع في هذه المسألة ، ويصبح من ينازع المهاجرين مائلاً لإثم أو متورطاً في هلاك أو مفصلاً بباطل ! وأنت تفهم كل هذه المعاني من سياق تركيب الكلام على النحو الذي صاغه به عمر رضي الله عنه ، ومن ثم فإن بلاغة الكلام - هنا - لا تتكئ على مظاهر الصنعة الشكلية من جناس ، وطباق ، وزدواج ، ونحوها وإنما تتكئ على البلاغة على التراكيب النحوية في إطار نظم المعاني المتوخاة من هذه التراكيب.

ونذهب إلي الخطبة الثانية للحباب بن المنذر التي يرد بها على خطبة عمر رضي الله عنه ، حيث يلاحظ عليها حدة التعبير ، والإكثار من أدوات الربط الإضافي بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب والسرعة وهي أمور يتطلبها موقف التنازع على أمر الخلافة في سقيفة بني ساعدة.

(١) دلائل الإعجاز: ص ٢٢٤

٢- يلاحظ أن مدخل الحديث للحباب في المرتين ؛ اللتين أدلى بهما برأيه في مسألة الخلافة ؛ أقول: يلاحظ أن مدخل الحديث واحد ، حيث قال في المرة الأولى:

(يا معشر الأنصار: املكوا عليكم أمركم)

وقال في المرة الثانية:

(يا معشر الأنصار: املكوا على أيديكم)

فإذا كانت الجملة الندائية في الموقف الأول تدعو الأنصار إلي التوحد والترابط، فإن الجملة في الثانية تدعو إلي التأهب ، والتصعيد ، والتحفز .

وقد عطف الحباب على جملة المنادى به الأمرية جملة طلبية مفادها النهي، وأشار إلي كلام سيدنا عمر باسم الإشارة تعبيراً عن عدم اكترائه به والاستعلاء عليه ، وتلك آفة التفكير السياسي الذي بدأ مبكراً في الحياة الإسلامية، فعطف النهي عن سماع كلام عمر - رضي الله عنه - وكلام أصحابه كي لا يحدث هذا السماع شقاقاً في صفوف الأنصار ، أقول: عطفه على استعدادهم وتحفزهم.

وربط بالفاء بين ذهاب نصيبهم وسماعهم مقالة عمر وأصحابه ، فربط بين المعنيين في الجملتين ارتباط النتيجة بالسبب ، فقال:

(يا معشر الأنصار املكوا أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من الأمر.)

ويلجأ الحباب إلي الجملة الشرطية التي تربط بين السبب والنتيجة، ويربط بين جوابها وشرطها بالفاء ، لأن الجواب جملة أمر ، ويعطف على جملة الجواب جملة أخرى بالواو يدعوهم فيها إلي انتزاع الأمر من المهاجرين انتزاعاً، ويتوالى الربط بالفاء التي يتقلت عنها المعنى الكامن في أعماق هذا الخطيب الذي نستكشف منه خبيئة نفسه ، فيربط بين الاستيلاء على الخلافة وأحققتها لفريقه بجملة اسمية احتاجت إلي

تبرير فعطف مرة أخرى عليها جملة موضحة لها مبرزة لهذا الحق الذي يراه لفريقه ، لأن هذا الدين دان له من لم يكن يدين له بسيوفهم هم.

فقال: (فإن أبوا عليكم ما سألتموه ، فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين.)

وتبلغ لغة التصعيد مداها في قول الحباب:

(أنا جُذِلْها الْمُحَكِّكُ وَعُذِيْقُها الْمُرَجَّبُ)

إن هذا الذي يقوله الخطيب - هنا - من أمثال العرب ، وهو يقصد: أنه رجل يستشفي برأيه وعقله.

ثم يرى أن الخلافة للأنصار ولو احتكم من أجلها إلي الحروب والغارات، وهذا ما عبر عنه أسلوبه بالقسم الذي فيه معنى التهديد والوعيد.

(أما والله لئن شئتم لنعيدنها جَذَعَة)

والجَذَعَة لغة: هي الفتاة الشابة وهو يقصد -هنا- أن نجعل أمر هذه الخلافة نازلاً وحرباً متجددة !!

وهنا نجد تدخلاً من سيدنا أبي عبيدة الذي يحاول استمالة الأنصار من خلال لغة رصينة رزينة فيها معنى التحذير من أن يكونوا بتفكيرهم أول من بدّل وغير! ونحن نلاحظ هذا المعنى من خلال بناء مقالته على جملتين عطف الثانية على الأولى عطف ترتيب وتعقيب ؛ إذ لا يتوجب على الأنصار أن يكونوا أول من بدل وغير وهم أول من نصر وأذر!! ، فقد لفت العطف بالفاء هنا إلي أن سرعة النصر والمآذرة ليست كسرعة التبديل والتغيير!

يقول: (يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآذر فلا تكونوا أول من بدّل
وغير).

ونصل إلي خطبة بشير بن سعد وهي تمثل ختام الحراك السياسي في سقيفة
بني ساعدة ، حيث سيحسم بها أمر الخلافة على نحو يضع حدًا للصراع بين فريقَي
المهاجرين والأنصار .

وقد افتتح بشير بن سعد خطابه إلي الأنصار بما يرضى غرورهم وقد بنى
نداءه عليهم على ضمير الجماعة (إنّا) المضاف إليه جملة القسم ليزيل بذلك أي شك
قد يعلق في أذهانهم ، حينما يؤكد لهم ما هم فيه من فضيلة وسابقة في الدين، إلا أنه
أبان لهم أن كل هذه الخصائص التي يتمتع بها الأنصار كانت لرضا الرب وطاعة
النبي ، ثم انظر إلي جمال عطفه للجملة الفعلية المنفية بحرف الفاء لترتيب وتعقيب
أن من كان عمله لرضا ربه وطاعة نبيه ، فلا يصح أن يستعلي على الناس بذلك ،
ثم عطف على هذه الجملة جملة أخرى منفية أشركت نفي عرض الدنيا بهذا العمل مع
عدم جواز الاستطالة به على الناس ، فإذا فهمت ذلك من سياق هذه التراكيب فاعلم
أن توخي المعاني النحوية من خلال تراكيب الجمل يعني توخي المعاني ، وأن توخي
المعاني في هذه المقامات هو البلاغة.

يقول بشير بن سعد:

(يا معشر الأنصار ، إنّا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين،
وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا، فما
ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عَرَضًا.)

وإذا كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد أكد في خطبته أن العرب
لا ترضى أن تؤمر الأنصار والنبي من قريش ، وأنه أيضا قد أكد أن العرب لا تمتنع
أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم يعني قريشا.

أقول: إذا كان هذا هو رأي عمر - رضي الله عنه - فإن بشير بن سعد - رضي الله عنه - أيضا قد حسم المسألة في نفس الاتجاه من خلال مقالة بناها على درجة عالية من الصياغة النحوية المحكمة ؛ حيث أدى التركيب النحوي وظيفية دلالية تمثلت في الإفصاح الصريح عن أحقية قريش في الخلافة من خلال العناصر التالية:

١- أداة الحث والتنبيه (ألا).

٢- تأكيد معنى الجملة الخبرية بـ (إنَّ) وتحويلها من ضرب الابتداء إلي ضرب الطلب مراعاة لملايسات الموقف.

٣- استخدامه للربط الإضافي الذي لعب درواً بارزاً في تماسك المعنى فكما تؤدي الواو العاطفة وظيفية الإشراف في الحكم الإعرابي ، فإنها أيضا تشترك المعطوف مع المعطوف عليه في المعنى بحيث يصبح والأمر كذلك معنى الجملة المعطوفة ناتجا عن معنى الجملة المعطوف عليها ؛ فأحقية قوم محمد ﷺ به ترجع إلي أنه قريشي!

٤- استخدام الخطيب للقسم يعني أنه يسعى إلي حسم قضيته ؛ إذ ليس بعد القسم من تأكيد في القوة ، وانظر إلي كلمة (أبدأ) في ختام السياق ، فإنك سوف تجدها تعني أن صاحب القسم يقصد بها ديمومة قسمه وهذا يعني إنهاء أمر هذه القضية.

٥- عاد الخطيب إلي استخدام الربط الإضافي بالفاء التي تفيد السرعة والتعقيب والترتيب كما هو معلوم ، وهي هنا تنصدر جملة معطوفة على صدر المقالة:

(ألا إن محمداً)

وهي - هنا- تفيد معنى النتيجة المترتبة على معنى صدر المقالة ، لذا فإن الجملة الأمرية -هنا- تحمل معنى الرجاء درءًا للخلاف بين المسلمين.

٦- استخدم الخطيب بعد العطف بالفاء العطف بالواو مرتين حيث عطف على جملة الأمر: - (اتقوا الله) - جملتين طلبيتين أيضا مجالهما الدلالي هو النهي والتحذير فقال:

(ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم)

والمعنى في الجملتين كما نرى متصل بدعوة الخطيب في جملة (اتقوا الله) اتصالاً أكيدا ، فالنهي عن الخلاف والنزاع مرتبط بل مترتب على تقوى الله.

وهكذا فقد حسمت الصياغة المحكمة للبناء النحوي في الخطبة ؛ أقول: حسمت قضية الخلافة في سقيفة بني ساعدة.

القسم الثاني

تجليات النص في نثر الصديق رضي الله عنه

المبحث الأول
نثر الصديق ومستويات الخطاب

أولاً: في رحاب خطبة الصديق يوم قبض رسول الله ﷺ

ولي أبوبكر - رضي الله عنه - الخلافة عن رسول الله ﷺ ، في ظروف صعبة ، عقب أحداث السقيفة ، وبالتالي فإننا ونحن نحلل بلاغة النص في نثره لن يغيب عنا كل ذلك، لأن نصوص النثر من أهم وظائفها أنها تعكس الواقع بكل ملابساته.

إن الحديث عن نثر الصديق يشمل العديد من الموضوعات من نحو: خطبته يوم قبض الرسول الكريم ﷺ ، وخطبه بعد البيعة وهي كثيرة تحتاج إلي إنعام النظر للوقوف على فقه دلالة النص فيها واستخراج بلاغة التراكيب.

وهناك كذلك خطبه - رضي الله عنه - الخاصة بفتح الشام ، كما لا ننسى أدب الوصية في نثره وما يحمله من مرام ودلالات ، وكذلك وصيته لسيدنا عمر بن الخطاب وما تحمله من بلاغة ودلالة !

إن استجلاء بلاغة النص في خطبة الصديق يوم قبض رسول الله ﷺ يكشف عن عمق العلاقة بين الرسول ﷺ وبين الصديق^(١).

لقد استهل الخطيب خطبته بمناجاة رسول الله ﷺ في حديث هامس عبر به عن هول الفجعة وأثر المصيبة على نفسه.

لقد رفع الصديق الثوب عن جثمانه ﷺ ، ووجه الحديث إليه من خلال مجموعة من الجمل التي جاءت متوازية متلاحقة ، عبر فيها عن مشاعره تجاهه ﷺ وإني أدعوك أن تنعم النظر في هذه الجمل من خلال الشكل التالي:

١. طبت حياً وطبت ميتاً

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٧٩.

٢. وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة

أما الجملة الأولى فقد عبر بها عن جماله ﷺ حيًا وهذا أمر لا خلاف عليه، ثم عطف عليها جملة أخرى في نفس زمن الأولى وهو الماضي (وطبت ميتا) لقد أشرك العطف -هنا- الفاعل وهو الرسول في فعل واحد وهو الفعل (طاب) بمعنى حسي، فلماذا جاء العطف بتكرار الفعل وكان يغنى عن هذا التكرار الإبقاء على فعل واحد فيقول الخطيب:

طبت حيا وميتا في مقابل:

طبت حيا وطبت ميتا

لأبد أن يضيف التكرار للفعل معنىً جديداً وإلا يصبح التكرار مدعاة لإفساد المعنى المرجو منه! وتفسير ذلك عندي أن معنى الفعل يختلف في موقف الحياة عنه في موقف الموت ، إذ إن حسن الحياة يغير حسن الموت ، فالأخير وإن دلّ على معنى الجمال. إلا إن هذا الجمال فيه جلال وهيبة لأنه جمال مخلوع على ميت !

إلا أن تدقيق التأمل يؤكد أن أبا بكر هاله ما رأى من جمال على وجهه ﷺ فكرر الفعل معطوفاً على الفعل الذي اعتاده في الرسول ﷺ حيًا ، وكأنه لم يصدق أنه مات !

فالربط الإضافي -هنا- بحرف العطف الواو ربط جملة بأخرى ، وأدت الواو - هنا- وظيفة الإشراف الحكمي والدلالي في آن.

وقد عبرت الجملة الثانية عن كونه ﷺ خاتم الأنبياء ، وأراد الخطيب أن يقول: لقد انتهت النبوة بموتك !!

غير أن المتأمل في تركيب هذه الجملة يجد الخطيب قد عبر بالفعل انقطع، ولم يعبر بالفعل انتهى ، فلماذا ؟ ولماذا كرر الفعل أيضا في هذه الجملة؟ إنه من الجائز أن نقول: إن مألوف العادة أن الرسالات كانت على فترات، وأنها لم تنقطع

بالفعل لموت أي بني قبله ﷺ ، أما موته فيعني انقطاع علاقة الأرض بالسماء ، وقد نص القرآن على ذلك ؛ حيث إنه النبي الخاتم. وقد أفاد تركيب الجملة - هنا - تخصيصا للنبي على غيره من الأنبياء.

ومن هنا نفهم الربط العطفى بالفاء في قول الصديق:

(فعظمت عن الصفة)

أي أنه ﷺ أكبر من أي وصف ، وقد أفادت الفاء - هنا - معنى السببية، وعطف الصديق على معنى الفاء العطف بالواو عطف جملة على جملة ، حيث عطف على القول السابق قوله رضي الله عنه:

(وجلّت عن البكاء).

إنّ ما أود قوله - هنا - في موقف الصديق حين تحدث بلغة هامة مع الرسول ﷺ وقد فاضت روحه أن حديثه كان حديث إكبار ؛ حديثا خرج عن مألوف العادة إلي مرام جديدة أراد أن يفصح عنها ، وتعالى لتأمل سوياً تعاطف الجمل في قوله:

١. فعظمت عن الصفة

٢. وجلّت عن البكاء ،

٣. وخصصت حتى صرت مسلاةً ،

٤. وعممت حتى صرنا فيك سواء

إنّ أول ملاحظة على هذه الجمل أنها جمل فعلية ، فعلها ماض متصل بتاء الفاعل ، وثاني هذه الملاحظات يتمثل في أن بين الجملتين الأولى والثانية توازياً تركيبياً نحوياً متطابقاً ، فالفعل فيهما لازم اكتفى بفاعله ومتعلقه.

وأن الفعل الأول إذا كانت دلالته تعني أن رسول الله ﷺ أكبر من أي وصف، فإن الفعل الثاني يعني الدلالة أيضا على أنه ﷺ كان أكبر من أن يطفأ نار فراقه أي بكاء.

أما الملاحظة الثالثة فتشير إلى أن بين الجملتين الثالثة والرابعة توازيا نحويا من زاوية التركيب والدلالة. وأنها متصلتان من خلال الربط الإضافي بحرف العطف الواو ، وأن معنى الجملة الأولى يعني أن موته ﷺ قد صار أسوة في الناس، حيث إنه بالرغم من اختصاصه بالنبوة وما يتصل بها من مناقب، فإنه قد مات !

أما معنى الجملة الثانية فهو معنى مختلف تمامًا ، حيث تفيد هذه الجملة أن مصيبة موته ﷺ قد عمت جميع المسلمين ، فصاروا هم وأهل رسول الله ﷺ سواء في الحزن عليه.

إن العطف - هنا- من قبيل العطف النحوي في الإشراك في الحكم الإعرابي مع اختلاف دلالة المعنى في الجملتين ، وتفسير ذلك عندي أنه عطف من قبيل بيان الحالة العامة لموقف واحد وإن تشعبت مسالك الدلالة عليه وهو موت الرسول ﷺ وما ترتب عليه من حزن وفجعة !!

ويستوقفنا التركيب الشرطي في النص ، وما يحمل من دلالات كاشفة عن المعنى المقصود في النص.

وقد جاء التركيب من خلال "لولا" الشرطية غير الجازمة في قول الصديق: (ولولا أن موتك كان اختيارًا منك لجدنا لموتك بالنفوس ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء الشؤن)

أولاً: نحن أمام تركيب شرطي غير جازم ، عطف عليه تركيب آخر غير جازم بنفس الأداة ، وبالتالي فإن بين الجملتين توازيا تركيبيا أساسه صيغة الشرط ،

مع ملاحظة أن جواب الشرط الذي أفاد امتناع وقوع المعنى فيه لوقوع الشرط قد تصدرته لام التوكيد.

ثانياً: في جملة الشرط الأولى تناص إشاري ضمنى في قوله ﷺ: "ولولا أن موتك كان اختياراً منك" حيث تناصت جملة الشرط مع حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه: (لم يُقْبَضْ نبيُّ حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير).

وهنا تعلق السيدة عائشة - رضي الله عنها - بقولها:

(فسمعتَه وقد شخص ببصره ، وهو يقول: "في الرفيق الأعلى" فعلت أنه خَيْرٌ ، فعلت أنه لا يختارنا إذن ، وقلت: هو الذي كان يحدثنا وهو صحيح).

ويأتي التناص غير المباشر - هنا - ليأخذ معنى الحديث النبوي السابق بغير نصه ، بحيث تماهى معنى الحديث في نسيج الجملة النثرية في خطبة الصديق ، وكشف لنا بعد هذا التماهى عن دلالة ارتبطت بنص الصديق وظروف إنتاجه ؛ وهي وفاته ﷺ !

ويأتي امتداد جملة الشرط الأولى من خلال الربط الإضافي بالواو ، بحيث جاء المعطوف جملة شرطية أيضاً غير جازمة علقت معناها على معنى الجملة الأولى ، كما علقت جوابها على شرطها. وأعطى معنى الجملة الثانية في سياق شرطها نهيه ﷺ عن البكاء ، ومن ثم فإن أبا بكر حينما قال موجهها خطاباً للنبي ﷺ وهو مُسَجَّى على هذا النحو ، أقول: أراد أن يعلن أن البكاء لو لم يُحرِّمهُ الرسول ﷺ لظلت الأمة في حالة بكاء حتى ينضب الماء في مجرى الدمع إلي العين ، وذلك مبالغة في التعبير عن حزن الأمة لفراقه ﷺ.

ثم نلاحظ أن الصديق قد ربط أسلوب الشرط في جملته الممتدة عبر أداة الربط الإضافي الواو ، بأداة العطف الفاء التي أفادت -هنا- الإضراب عن كل ما سبق من مظاهر الحزن التي عَطَّلَتْ بفعل نهيه ﷺ عن البكاء.

أقول: أفادت فاء الربط -هنا- الإضراب عن كل ذلك وإعلان عدم القدرة عن إبعاد مظاهر التحسر لوفاته ﷺ ؛ من ذبول واصفرار وشحوب وحسرة عبّر عنها بقوله:

(فكمد وإدْنافُ).

وَتَمَعَّنَ معي قول الصديق عن هذا الكمد المصحوب بالإدْناف (يتحالفان ولا يَبْرَحان) ، وقد أفادت هذه الجملة مكوث هذا الإدْناف وبقاءه ملازمًا للأمة كلها ، وقد أعطت الجملة الاسمية -هنا- معنى الثبوت في المعنى المخبر عنه من كون أن موته ﷺ سيظل أثره إلي قيام الساعة. وأنت لا ترى هذا المعنى بصورة مباشرة ؛ وإنما يجليّه لك التركيب الذي ورد فيه !!

ثم تأتي الجملة الندائية في قول الصديق:

(اللهم فأبْلِغْهُ عِنا السلام)

حيث ينادى الصديق ربّه راجيا أن يُبْلِغَ سلامه إلي نبيه من الصديق ومن الأمة. وأنت تلاحظ دائما أن أداة النداء محذوفة وجوبًا في هذا اللون من الأساليب، وقد أفادت الفاء التي تصدرت جملة النداء معنى السرعة في الطلب.

ثم يلي هذا التركيب جملة أمرية مستأنفة في قوله:

(اذكرنا يا محمد عند ربك ، ولنكن من بالك)

ولا ننسى أن الخطيب (وهو الصديق رضي الله عنه) قد ساق الأمر -هنا- مساق الرجاء متوسلا إلي رسول الله أن يذكر أمته عند ربه في الرحاب الأعلى ، ثم إن مدخول جملة الأمر قد جاء جملة نداء ؛ أداة النداء فيها للبعيد (يا) وذلك نظراً لموته ﷺ ، وقد امتدت جملة الأمر عبر سياق الربط الإضافي بالواو إلي جملة عطف عليها اتصل مضمونها بمضمون جملة الأمر، حيث جزمت في جواب الطلب

باللام ، ودلّ مضمونها على طلب الأمة على لسان أبي بكر أن تظل الأمة في ذاكرته ﷺ ، فالوصل بين الجملتين -هنا- من قبيل الوصل الدلالي الممتد.

يقول الصديق: ((اللهم فأبلغه عنا السلام ، اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالك)).

إن الملاحظ على بناء الجمل في نص هذه الخطبة أنه جاء متماسكا، وأن الوسيلة التي لعبت دورا بارزا في تماسك هذا النص هي أدوات الربط الإضافي، أو الربط السببي من خلال جملة الشرط.

وتأتي جملة الشرط في نهاية النص لتعلق مكوث الوحشة في نفوس المسلمين لفراقه ﷺ على بقاء السكينة والهدوء والطمأنينة التي تركها الرسول الكريم في نفوس أصحابه.

يقول الصديق: (فلولا ما خَلَفَتْ من السكينة لم نُقِمَ لِمَا خَلَفَتْ من الوحشة).

ثم يبتهل الصديق إلي ربه أن يُبَلِّغ نبيه عن أصحابه وأمته تلك المشاعر النبيلة والأحاسيس المرهفة ، من خلال الجملة الندائية. ثم تأتي جملة الأمر في النهاية حاملة معنى الرجاء بأن يُحَفِّظ النبي بسيرته وأفعاله في نفوس المسلمين وسلوكهم، فقال:

(اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا).

ثم يتصل بسياق الخطبة السابقة ، خطبة الصديق على الناس التي استهلها بشهادة الإسلام في مثل هذا الموقف العصيب ، ثم شهادته - رضي الله عنه - بأن القرآن كما نزل على محمد ، مع ملاحظة أن بناء جمل الاستهلال قد جاءت صياغته في جمل متوازية في تركيبها النحوي ، مختلفة في دلالة المعنى، وأن هذا الاختلاف في المعنى يفضي إلي دلالة كلية تؤكد على كمال رسالته ﷺ من خلال القرآن ، والتشريع والأفعال التي صدرت عنه. كما أن هذه الجمل جاءت مترابطة من خلال

حرف العطف الواو ، ثم زِيلَ الخطيب هذه الجمل بجملة اسمية منسوخة يخبر فيها الناس أن الله هو الحق الظاهر الذي لا لبس فيه فقال: (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، وأن:

- الكتاب كما أنزل ،
- وأن الدين كما شرّع ،
- وأن الحديث كما حَدَّثَ ،
- وأن القول كما قال ،
- وأن الله هو الحق المبين).

وأود أن أقف مرة أخرى أمام هذه الجمل المتوازية نحويًا من حيث التركيب، لا من حيث الدلالة ، إذ إن تكرار التركيب يعد ضرباً من ضروب التكرار، ولا بد للتكرار من أن يحقق فائدة دلالية تضاف إلي المعنى السابق في كل جملة معطوفة على الأخرى وإلا صار التكرار ضرباً من ضروب العبث وأبوبكر هنا في هذه الجمل يقف بمثابة الشاهد على كمال رسالته ﷺ ؛ فهو يشهد أن القرآن كما نزل لا تحريف فيه ، وأن الدين مثل ما شرّع محمد ﷺ ، وأن الحديث حول هذا الدين مثل حديثه هو ﷺ ، وأن القول في الدين من نحو ما قال أيضاً. ونحن في هذه الجمل نرى المعاني الجديدة تتوالى وتؤازر بعضها، بما يحقق كمال تكرار هذه التراكيب النحوية مع عدم تكرار دلالة المعنى بها !

وأنت واجد في كلام أبي بكر: (وأن الله هو الحق المبين) صلة بخطابه في الناس معلناً موت الرسول ﷺ ، منهياً هذا الوهم الذي أفضى بالناس إلي عدم تصديق موت النبي ﷺ وعلى رأسهم كبار الصحابة من نحو الفاروق عمر!

وقد استعان الخطيب - هنا- بسياق الشرط الذي ترتبط فيه النتيجة بالسبب، وهذا مدعاة لإقناع الناس في مثل هذا الموقف الذي ظنوا أن نبيهم الكريم ﷺ لا يجري عليه الموت أبداً ، فأراد أن يخبرهم بأن المعبود لا يموت، بل هو حي لا يموت وأن محمداً بشر جرى عليه ما يجري على البشر من أسباب الموت وأعراضه ، فقال مستخدماً الربط الإضافي في اتصال المعنى عبر جملة شرطية واحدة ، عطف عليها جملة أخرى ارتبطت بها دلاليًا ؛ فقال:

(من كان يعبدُ محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ

لا يموت.)

فالعطف - هنا- عطف ترتيب وتسبيب ، وثمة توازٍ بين الجملتين أيضاً من ناحية التركيب ، فأداة الشرط واحدة هي: (من) ، وفعل الشرط جاء فعلاً ناقصاً ماضياً مبنيًا في محل جزم في الجملتين.

كما أن جواب الشرط جاء مقترنا بالفاء التي رتبت النتيجة على السبب ووصلت المعنى. كما جسدت المقابلة بين جملتي الجواب إيقاع المعنى وأبرزت بشرية الرسول الكريم ﷺ بتأكيد موته. أمّا طرف المقابلة الآخر وتمثله الجملة الثانية فقد أكد فيه الخطيب أن الله حي ، وأن هذه الحياة أبدية ، وأنها صفة تَقَرُّدٌ تلازمه سبحانه ولذلك جاء خبر إنَّ - هنا- مفرداً وهو كلمة "حي" ، ثم تم تخصيصه بالجملة الفعلية المنفية وهي قوله: (لا يموت) التي وقعت صفة لـ "حي".

إنَّ ثمة تناصاً غير مباشر في قول الصديق: (وَأَنَّ الله قد تقدم إليكم في أمره، فلا تدعوه جزعاً)

حيث يشير المعنى في هذا القول ضمناً إلي التناص القرآني في قول الحق تبارك وتعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ).

وفي قول الحق أيضاً: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ).

وعلى هذا النحو يلعب التناص دوراً في إعادة تشكيل النص النثري هنا، عبر فضاء دلالي أنتج أسباب امتصاص النص المتناص لهذه النصوص القرآنية.

وهكذا تتحول الخطب عند الخلفاء الراشدين بصفة خاصة إلى لوحة مرمرية عكست - لنا - هذه الاقتباسات التي تماهت في نسيج هذه الخطب ، بما يكشف أن النص الأدبي ليس نصاً مغلقاً ، وأنه - أي النص الأدبي سواء أكان شعراً أم نثراً - نص تَخَلَّقَ من خلال عمليات اتصال مستمرة ، وامتصاص دائم لنصوص سابقة ، عبر عملية تفاعل لا تجعله (ثوباً مرقعاً ، انتزع كل عضو من أعضائه من جسد آخر، بل إنه يحقق وجوده كمولود جديد يثري عالم الإبداع كنص مفتوح)^(١)

ويلعب الأسلوب الخبري دوراً في إبراز إعلامية النص في إطار حديث الصديق إلى الأمة حال إعلانه نبأ وفاة الرسول ﷺ.

وقد أعقب الخبر - هنا - الشرط الذي أعاد به الخطيب تنشيط ذاكرة الناس من كون أن محمداً قد مات ، وأن هذا الموت كان اختياراً من الله لنبيه على بقائه بين المسلمين ، وقد جاء ضرب الخبر - هنا - طلبياً مراعاة لحال الصدمة التي عاشتها الأمة في المدينة حال وفاته ﷺ !

وقد عطف الخطيب على الخبر الطلبي السابق في قوله:

(وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اخْتَارَ مَا عِنْدَهُ عَلَى مَا عِنْدَكُمْ ، وَقَبَضَهُ إِلَيَّ ثَوَابِهِ).

(١) عبدالرحمن بسيسو: قراءة النص في ضوء علاقته بالنصوص المصادر: ص ٩٤ ، مجلة فصول،

مج ١٦ ، ١٤ ، القاهرة ، صيف ١٩٩٧م.

أقول: عطف عليه جملة فعلية زمنها ماض ، حملت معني السلوى واستبقاء أثره ﷺ في الناس من خلال كتاب الله وسنته ﷺ فقال: (وَحَلَفَ فِيكُمْ كِتَابَهُ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ).

ثم ترتبط الجمل السابقة في سياق بيان المعنى من خلال أدوات الربط الإضافي بجملة شرط من خلال حرف العطف الفاء الذي أفاد السرعة والترتيب معاً في قول أبي بكر:

(فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر)

وقد لوحظ أن شبه الجملة في قوله: بهما في جملة الشرط الأولى قد تعلق بالمعطوف عليه وهو جملة (خَلَفَ فِيكُمْ كِتَابَهُ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ).

حيث يعود ضمير المثنى في جملة الشرط هذه إلي (كتاب الله وسنته)، وكذلك الحال بالنسبة لجملة الشرط الثانية ، حيث تعلق شبه الجملة فيها أيضاً بجملة المعطوف عليه ، مما أعان على تماسك النص واستيفاء دلالاته.

وقد لعب بناء التضاد من خلال المقابلة بين جملتي الشرط دوراً في بيان أثر الأخذ بالكتاب والسنة ، حيث علقه الخطيب على المعرفة في جملة الشرط الأولى وقد علّق معنى الشرط في الجملة الثانية من كون أن كل من يفرق بين الكتاب والسنة فهو من أهل الجحود والإنكار ، ومن جحد وأنكر فقد كفر ، لذلك يأتي تذييل الخطاب في النص عند ختامه بشاهد قرآني مناسب من خلال قول الحق:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ)

ثم يستوقفنا التحذير في جملتين متتابعتين حيث جاءت دلالة هذا التحذير مُرَكِّزَةً على دور الشيطان في إلهاء الناس بقضية موته ﷺ ومن ثم فإن هذا الانشغال سوف يترتب عليه الافتتان عن الدين وهو أمر غير محمود أبداً ، وقد أفادت صياغة الجملتين من خلال توكيد فعلهما بالنون في قوله: (لَا يَشْغَلْكُمْ) و(وَلَا يَفْتَنَنَّكُمْ) تأكيد

دلالة التحذير من سعي الشيطان في إلهاء الناس وفتنتهم بموته ﷺ ، وهنا تأتي قيمة ربط هذا التحذير ربطاً إضافياً بالفاء التي أفادت التعقيب والترتيب من خلال جملة الأمر البلاغي الذي أفاد الرجاء في طلب السرعة في دفع أذى الشيطان بكل أمر يشله ويعطل سعيه نحو فتنة الناس بموت نبيهم والانشغال عن دينهم ، وقد جاء طلب السرعة في مواجهة الشيطان من خلال اسم الموصول المبهم الذي لم تكشف صلته عنه ، وإنما جاءت جملة الصلة مضارعة في الزمن بما يفيد استمرار السعي في تدبير الخطط التي تمنع الشيطان عن مباشرة سعيه لشغل الناس عن دينهم، أو الافتتان بموت نبيهم.

ثم عطف الخطيب على هذه الجملة جملة فعلية منفية دعا فيها الناس إلى عدم استنظار الشيطان وربطها بحرف الربط الفاء الذي أفاد التعقيب والترتيب الذي سوف يحدثه هذا الاستنظار وأبان عنه وأفصح من خلال جملة تحمل جواب هذا النفي المتمثل في لحاق الشيطان بالناس وما تحمله هذه الملاحقة من بلوغه أهدافه مع بني الإنسان المتجسدة في شغلهم عن عبادة الله وفتنتهم.

ثانياً: في رحاب خطبة الصديق بعد البيعة

إن دراسة بلاغة النص في خطاب الصديق بعد بيعته في سقيفة بني ساعدة، يبرز توجه خليفة رسول الله ﷺ إلى طمأننة الرعية على مستقبلها مع وضع طارئ جديد لم تألفه!

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا الجدل الذي احتدم بين المهاجرين والأنصار يوم السقيفة ، وقد رأي الصديق - رضي الله عنه - أن ثمة ضرورة تقتضي توضيح الأمر للناس ، فيأتي نص خطبته بعد البيعة بروايتين ؛ إحداها موجزة، والأخرى سلكت مسلك الإطناب.

ولا أظن أنهما تحملان إعلاناً واحداً ، وإن توافر عليهما قصد واحد تمثل في بيان أمر إدارة شئون المسلمين الذي غدا ملبساً عقب وفاته ﷺ.

أمّا الخطبة الأولى الموجزة فإن الصديق يستهلها بنداء الناس (أيها الناس)^(١) وأنت تلاحظ أنه أسقط أداة النداء منه ، وأن مدخول النداء - أعنى المنادى به - هو إعلام الناس بأسلوب الحاكم الجديد في إدارة شئون المسلمين، ويلفت انتباهنا الجملة المنادى بها ؛ فهي جملة اسمية إخبارية.

(إني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم)

وقد جاء خبر إنَّ فيها جملة فعلية بُنِيَ فعلها للمجهول وهو فعل يبدو مجهولاً للمتلقى (المخاطب) ، بيد أنه غير مجهول للخطيب ، وكأن بناء الفعل للمجهول - هنا- فيه إشارة إلي أن أمر الخلافة قد حسم ، وقد حسمه طرفان هما المهاجرون والأنصار في سقيفة بني ساعدة. وأن هذا الاختيار لا يعني أن الخليفة المختار خير من بقية الرعية.

وأنك ترى أن الخطيب قد عطف جملة (لست بخيركم) على جملة (قد وُلّيت عليكم) وأن العطف -هنا- قد أضاف إلي المعنى المخبر عنه معنىً يعلي من شأن الحاكم الجديد حين ينفي عنه الاستعلاء على الرعية بهذه الولاية ، وأن هذا العطف - أيضاً- قد أضاف عنصراً إخبارياً جديداً ، ويأتي ربط جملة (إني قد وُلّيت عليكم....) بجملة (إن رأيتُموني على حق فأعينوني) من خلال أداة الربط الإضافي (الفاء) التي أفادت الترتيب والسرعة ، مع ملاحظة أنها في سياق أسلوب الشرط الذي علق فيه الجزاء بشرطه ، وقد جاء الجزاء متضمناً معنى الأمر (أعينوني) وعطف عليه أسلوب شرط آخر وهو قوله: (وإن رأيتُموني على باطل فسدّدوني) وقد أدى هذا العطف -

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٨٦.

أعني عطف شرط على شرط - إلي تراكم دلالي للمعنى ، كرس جهد الخليفة الجديد في إقناع الناس بخلافته.

كما أن أسلوب الشرط -هنا- قد جاء مُصَدَّرًا (بإِنْ الشرطية) التي تفيد تقييد حصول الجزاء بحصول الشرط في الاستقبال ، وأنها أيضا تستعمل في الشرط غير المقطوع بوقوعه !

لأننا لا يمكن أن نقطع بوقوع الباطل من الصديق ، حتى يتوجب علينا أن نسدده له ! كما أنه علق عون الرعية له على رؤيتهم لخليفته الجديد وهو يسير على الحق في الفعل والقول.

ويلاحظ أن عطف جملتي الشرط لا يمكن أن نسميه عطف مغايرة في المعنى لأنه يبرز كثيرًا من كينونة هذا الخليفة التي تباين شخصية الرسول ﷺ ، ومن ثم فإن ما كان يطيقه الرسول ﷺ لا يمكن أن يطيقه الصديق !!

وقد أعان التوازي النحوي بين جملتي الشرط على إبراز الدلالة كما قلت عن طريق بنية التضاد ، وتعالى نتأمل من جديد هاتين الجملتين هكذا:

١. (فإن رأيتُموني على حقٍ فأعينوني)

٢. (وإن رأيتُموني على باطلٍ فسددوني)

لقد أكدَّ بناء التوازي في الجملتين المعنى من حيث أن رؤية الرعية للحاكم تعنى المراقبة والمحاسبة ، كما أن الحق يحتاج إلي عون حتى يستمر ويثمر.

أمَّا الباطل فيحتاج إلي تسديد أي إصلاح وتغيير حتى تعود الأمور إلي نصابها، والخطيب يعلن - لنا- ذلك باستشراف المستقبل.

ثم تستوقفنا الجملة الجديدة المستأنفة المنفصلة عن سياق المعنى المتصل عبر جملة النداء السابقة.

يقول: (أطيعوني ما أطعت الله فيكم).

إننا هنا أمام جملة سببية تعلقت فيها طاعة الحاكم على مدة دوام طاعته لله في الرعية ، ويأتي شبه الجملة في قول الخطيب: (فيكم) ليعلق دوام طاعة الحاكم لله في رعيته فيما يتصل بشئون الحكم من حيث العناية والرعاية بشئون هذه الرعية. وأنت تراه - هنا- قد علق طاعة هذه الرعية بدوام طاعته لله - أعني الصديق - في شئونها.

إن سياق الجملة - هنا- يرسم صورة للحاكم جعل صناعة محتواها فعله هو وليس فعل الرعية ، فإذا كان الحق مبتغاه فإن عون الرعية حق له عليها قد وجب، وقد ربط الحق بالطاعة لله.

ودعنا نتأمل امتداد التركيب الأمري هذا والتحامه بالتركيب الشرطي المباشر من خلال أداة الربط الإضافي الفاء التي أفادت السرعة والترتيب في قوله: (فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم).

وقد أفادت (إذا) الشرطية هنا شرطاً مقطوعاً بوقوعه ولكن في زمن الاستقبال، غير أن هذا الشرط علق بجزائه حيث لا طاعة للحاكم على الرعية إذا كان عاصياً لله !!

ولاحظ جواب الشرط الذي مثلته جملة (لا طاعة لي عليكم) حيث نفت (لا) النافية للجنس جنس الطاعة من المحكومين للحاكم إذا تحقق الشرط ، ولما كان الشرط من الاستحالة بمكان أن يقع وجبت طاعة الرعية للصديق.

ثم يختم الصديق خطابه إلي الناس بجملة مستأنفة جديدة ، قدمها إلي المتلقي من خلال بناء التوازي النحوي بين تركيبين تصدرتهما الأداة (ألاً) التي تفيد الحث والتنبية فقال:

(ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه.)

وقد تشكلت بلاغة التركيب -هنا- من خلال تعليق إخبار الصديق للناس: أن أقوى الناس عنده كل ضعيف ؛ أقول: جاء التعليق -هنا- من خلال قوله: (حتى آخذ الحق له) حيث تعلق استبقاء الضعيف لدى أبي بكر قوياً حتى انتهائه من أخذ الحق له. وقد أفاد حرف الجر (حتى) انتهاء الغاية من تمييز الضعيف بالقوة على غيره من الناس بأخذ (الحق) الذي جاء معرفاً (بأل) التي استغرقت جنس الحق أياً كانت درجته.

وقد تكرر المعنى في الجملة الثانية ، حيث أعطت معنىً أفاد استلاب الحق من القوي لصالح الضعيف من خلال عطف الخطيب لهذه الجملة على الجملة الأولى بأداة الربط الإضافي (الواو).

وقد ألفت شبه الجملة (عندي) في الجملتين ظلالاً من المعنى أفاد استحواد الخطيب وسيطرته على الموقف الذي يقوى شأن الضعيف حتى يقوى ويضعف شأن القوي حتى يأخذ الحق منه !

وإذا كان شبه الجملة -هنا- في قوله: (عندي) قد تعلق بمحذوف - كما يقول النحاة - تقديره (مستقر) فإن هذا المحذوف الذي دلّ عليه المذكور في قوله: (عندي) أقوى في الدلالة بطبيعة الحال من أن يقول: (لدى) التي لا تفيد البقاء والدوام والاستحواذ مقارنة (بعندي) كما ذكرت ، كما أن بناء التضاد في الجملتين قد أفاد وضوح الموقف في التركيبين ، حيث جسدت المقابلة أمراً غير مألوف للناس الذين اعتادوا من أمر القوى سيادة وسيطرة ، ومن أمر الضعيف استسلاماً ورضوخاً ، إلا أن موقف الحاكم هو الذي جسدت تلك المقابلة في شكلها الجديد الذي أظهر المعنى الذي يريده الخطيب ، ويصبح النظر في أمر التركيب دون الوقوف على دور المقابلة في التأثير الدلالي على المعنى الذي شكله التركيب في الجملتين ، أقول: يصبح

مَضِيْعَةٌ للجهد والوقت ، ولا يُفْضِي إلي شئ يذكر ، وأنَّ ما ذكرناه في أمر المقابلة وبيان أثرها الدلالي في التركيب هو الذي يتوجب أن يكون مناط الرعاية والعناية التي تبرز لك أن المعاني تسنح أو تتفلت بإنعام النظر في التراكيب، وهذا باب واسع في الدلالة ولا يجب أن يفوت على كل مدقق أو باحث عن ظلال المعنى في تراكيب النصوص.

وإذا ذهبنا إلي الرواية الأخرى لنص خطبة الصديق بعد البيعة ، فإنَّنا يمكن أن نقف على صورة أخرى لبلاغة النص ، وملح آخر لفقه دلالة التراكيب^(١).

إن أول ملاحظة على تركيب هذه الخطبة أنها تعطي افتتاحاً شبيهاً بالافتتاح الذي استهل به الصديق خطبته السابقة ؛ فإذا كان افتتاح الخطبة في روايتها السابقة يقول: (أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم) فإن هذا الافتتاح يعني في الحقيقة أن الخطيب يريد أن يؤكد للناس أنه مثلهم ، وأنه ليس مثل رسول الله ﷺ إذ ما يطيقه الرسول لا يطيقه أي فرد من البشر ولو كان الصديق !

أما افتتاح النص الجديد فيقول فيه: (يا أيها الناس: إنما أنا مثلكم ، وإني لا أدري لعلمكم ستكلفوني ما كان الرسول ﷺ يطيق.)

إن الملاحظة الأولى على هذا المفتتح تبرز حرص أبي بكر على تأكيد معنئ مانوس للناس من كونه بشراً مثلهم ، وقد أراد الخطيب -هنا- أن يؤكد للناس من خلال هذه الصياغة التي أفادت القصر والاختصاص من خلال (إنما)، أقول: أراد أن يؤكد لهم أمراً لا يجهلونه ، ولا ينكرونه ، وهو أنه ليس نبياً، وإنما هو مثلهم حتى لا يكلفوه ما كان يطيق رسول الله ﷺ.

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٨١.

وقد أدى الربط الإضافي - هنا - من خلال حرف العطف الواو إلى إزالة الإبهام عن المعنى بصورة أكثر إيضاحاً ؛ حيث جاء المعطوف عليه جملة إخبارية تبرز استعداد الناس لتكليف أبي بكر بما كان يطيقه الرسول ﷺ. ويلاحظ أن المعنى في الجملة المعطوفة ليس مؤكداً ، وإنما هو يحمل معنى الشك في قوله (وإني لا أدري لعلكم) ثم عبر بالفعل المضارع الذين انتقلت دلالاته إلى المستقبل: ستكلفونني. وهنا لعلك تدرك لماذا قال لهم: إنما أنا مثلكم؟ لقد أراد أن يخلص نفسه من هذه الهواجس فلم يجد سوى هذه الأداة الهامسة الناعمة التي أوقظت نفوس القوم على حقيقة أن أبا بكر مثلهم فأراد أبوبكر -على حد قول عبدالقاهر - أن يذكرهم بالأمر المعلوم ، ثم شرحه لهم على النحو الذي بينت لك ثم تراه استأنف الكلام موضحاً خصوصية النبوة في محمد ﷺ من كونه مصطفىً مختاراً على العالمين، وعطف على هذا الاصطفاء والاختيار عصمته من الزلل. فقال: (إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات).

كما عطف عليه مرة أخرى جملة أفادت القصر والاختصاص في قوله: (وإنما أنا متبعٌ ولست بمبتدع) فأفاد القصر والاختصاص - هنا - الإشارة إلى أمر معلوم لا يجهله الناس ، وإنما تمكن فائدة الأداة - هنا - في أن (إنما) إذ أفادت إثبات ما ذكر بعدها من كون أن أبا بكر متبع لمنهج رسول الله ونفى ما سواه من معنى ظهر في الجملة المعطوفة في قوله: (ولست بمبتدع). فجاء بالنفي تصريحاً في هذه الجملة. ولو لم يذكر هذه الجملة دلاً عليه معنى جملة (إنما أنا متبع) في ذاته من خلال هذه الأداة التي أثبتت نسبة المسند إلى المسند إليه، ونفى ما سوى ذلك من معنى مهما كان ، لذلك أفادت -هنا- معنى القصر والاختصاص !

وهكذا فإن نفي أبي بكر الابتداع عن نفسه يؤكد معنى القصر والاختصاص في كونه مُتَّبِعاً. وانظر معي إلى قول الصديق:

(فإن استقممت فتابعوني ، وإن زغت فقوموني)

فسوف تجد البلاغة فيه مبنية على مجئ الشرط ماضياً لفظاً ومعنى، مع العلم أن (إن) تأتي للتعليق في الاستقبال ، ومن ثم لا يصح أن يأتي الشرط وجوابه ماضيين لفظاً ومعنى ؛ وذلك لدلالة (إن) على المستقبل.

وفي مقالة الصديق نجد أنه - رضي الله عنه - لشدة رغبته في تحقيق الاستقامة في الحكم ، تصور غير الواقع واقعاً ، وتحدث عنه بصيغة الماضي، وكأن الاستقامة قد تحققت ، وترتب عليها اتباع الناس له.

وفي قوله رضي الله عنه:

(وإن زغت فقوموني)

نجد أن الشرط قد جاء بلفظ الماضي للتعريض بمن يحكم ويزيغ عن الحق، فيتوجب تقويمه ورده ! ولما كان من المقطوع به أن سيدنا أبا بكر - رضي الله عنه - لن يزيغ عن الحق أبداً ، لأنه ما زاع عنه في حياة رسول الله ﷺ فكيف به بعد حياته ! ولعل فضل هذا الأسلوب على أسلوب التصريح يرجع إلى قوته في الإبلاغ ؛ فلئن كان الصديق وهو مَنْ هو مِنْ رسول الله منزلة إن زاع عن الحق في الحكم يُقَوِّم ، فكيف بغيره إن زاع عن الحق ؟! وفي مثل هذا الأسلوب الشرطي الذي أفاد التعريض من البلاغة والعظة ما يفوق الأسلوب المباشر؛ إذ إنه أفعل في النفوس وأعطف بها كما يقول محمد أبو موسى^(١).

وفي قول الصديق: (ألا وإن لي شيطاناً يعتريني ، فإذا غضبت فاجتنبوني)

أقول في قول الصديق المشار إليه -هنا- بعض مظاهر البلاغة النصية، والدلالة التركيبية.

(١) دلالات التراكيب ، دراسة تحليلية: ص ٢٦٩.

أولاً: فيه كناية في قوله: (إن لي شيطاناً يعتريني) حيث كني عن الغضب بالشيطان لما بينهما من ملازمة ومناسبة ، وفي قوله: (يعتريني) ما يفيد أن هذا الغضب يسيطر على الإنسان حال وقوعه مما يجعل الأمر يطير من يده. وهنا تأتي الجملة الشرطية المتصلة بهذه الجملة عن طريق الربط الإضافي بالفاء التي أفادت الترتيب والتعقيب ، وقد تصدرت هذه الجملة الأداة (إذا) التي أفادت وقوع الشرط مقييداً بجزائه في الاستقبال ، والشرط معها مقطوع بوقوعه.

ففي قوله (فإذا غضبت فاجتنبوني) إشارة إلي أن وقوع الغضب من الصديق كأى بشر في المستقبل يعد أمراً مقطوعاً بحدوثه ، فإذا حدث ، فإن أبا بكر يدعو الناس إلي اجتنابه. وأنت ترى أن مثل هذه الجمل التي دخلت عليها الأداتان: (إن ، وإذا) أفادت من المعنى ما يبرز إنسانية أبي بكر في موقعه الجديد بعد موت النبي ﷺ.

ويستثمر الصديق حدث وفاة رسول الله ﷺ فيدعو الناس إلي العمل الصالح قبل أن تنقطع الأعمال ، ويصدر دعوته بأداة الحث (ألا) التي أفادت التنبيه، كما ذكرهم بأن من مألوف العادة أن الناس تغدو وتروح في أجل قد غُيِبَ عنها علمه لحكمة إلهية وهي إعمار الكون.

فقال: (ألا وإنكم تغدون وتروحون في أجلٍ قد غُيِبَ عنكم علمه)

وأنت ترى أن التعبير بالفعل المضارع الذي يدل على الحال -هنا- قد أفاد الألفة والاستمرار في مباشرة طقوس الحياة بدعةً وهُدوءٍ ، كما أن بناء الفعل للمجهول قد ألقى بظلال كثيفة من الطمأنينة ، لأن غياب الأجل ليس من مقدور البشر الإحاطة به ، كما أن تضعيف الفعل (غُيِبَ) دلَّ على غياب فاعله، وهو لفظ الجلالة ، كما دلت صيغة البناء للمجهول على القصد والحكمة من تجهيل ميقات العمر .

وقد ربط الصديق هذا المعنى بمعنى لاحق من خلال أداة الربط الإضافي (الفاء) التي أفادت السعي والسرعة والترتيب في قوله:

(فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا ولن تستطيعوا إلا بإذن الله).

لقد تم عطف جملة شرطية على جملة خبرية عُلِقَ معناها على هذا الشرط. وقد أفادت إن الشرطية -هنا- شرطاً غير مقطوع بوقوعه في المستقبل، وقد تعدى فعل الشرط على المفعول ، وهو المصدر المئول في قول الصديق: **(ألا يمضي هذا الأجل)** أي: إن استطعتم إمضاء هذا الأجل إلخ وعلق هذا الإمضاء على معنى مستثنى وهو أن يكون الناس في عمل صالح ، خلافاً لإمضائه في أعمال أخرى تُضَيِّعُهُ ، هنا أفاد هذا المعنى في صيغة الاستثناء معنى الاختصاص والقصر الذي إن تحقق أنتج قيمة لهذا الأجل وهي العمل الصالح.

وهنا يأتي الجزء المعلق على هذا الشرط في صيغة الأمر المقرون بالفاء للسرعة (فافعلوا) وقد حمل الجزء هنا معنى الرجاء لأن الفعل الصالح -هنا- غير مأمون بقاءه لغياب الأجل ، لذلك عطف الخطيب عليه جملة ذيلت المعنى وأوضحته وهي قوله:

(ولن تستطيعوا إلا بإذن الله) ، والمعنى أنكم لن تستطيعوا إمضاء أجلكم في عمل صالح إلا بإذن الله ، ومن ثم أبانت هذه الجملة عن ضعف وعجز البشر في هذا الشأن بنفيها هذه الاستطاعة المشكوك فيها ، والمعلق جزاؤها على شرطه.

وانظر إلي دعوة الصديق الناس إلي التسابق في **(مهل آجالهم)**، وهذا التعبير من ألوان التعبير التي تفيد انصراف الناس عن التسابق في العمل الصالح، لأنهم يركنون إلي الدعة، فيمضي بهم الأجل وينقطع عنهم العمل فيخسروا.

فأسلوب الأمر من الصديق - هنا - مبني على التحذير ؛ يقول الصديق:

(فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلي انقطاع الأعمال)

وقد صور الصديق الآجال في صورة إنسان يحمل أمانة فيسلمها، وجعل الصديق هذه الآجال تُسَلَّمُ الناس إلي الحسرة والندامة ؛ وذلك لانقطاع العمل بانقطاع الأجل.

وقد ذُيِّل الصديق حديثه بشاهد يدعم فكرته التي بناها على أسلوب الأمر السابق، وقد جاء هذا الشاهد علي هيئة خبر طلبِي ؛ فقال رابطاً هذا الخبر بأسلوب التحذير: **(فإنَّ قومًا نسُوا آجالهم ، وجعلوا أعمالهم لغيرهم ، فإياكم أن تكونوا أمثالهم.)**

وأنت ترى أن الخبر -هنا- قد بُني على التمثيل بنكرة وهي (قوم) ، إذ ليس كل الناس ينسى أجله وليس كل الناس يجعل عمله لغيره ، وإنما أراد الخطيب أن يمثل للقضية بهذا الصنف من البشر الذي أهلكه النسيان.

وقد ربط الخطيب هذا المعنى بأسلوب التحذير بالفاء التي أفادت السرعة والتعقيب، ومن ثم كان التعقيب المناسب هنا هو التحذير ، من أن يكون المخاطبون أمثال هذا الصنف من البشر.

وقد لعبت صيغة التكرار الأسلوبي دوراً أصيلاً في تكريس هذا التحذير من الموت دون عمل يمثل زاداً ينفع عند الحساب. فقال الصديق **(الجدَّ الجدَّ والوحا الوحا ، والنَّجاء النِّجاء)** ثم يربط هذا التحذير عبر هذه الصيغ المتلاحقة المتركمة التي أفادت تهويل أمر الموت دون زاد ينفع المرء من بعده يوم الحساب، أقول: يربط الخطيب هذا التحذير بالفاء المسببة لهذه الدعوة التحذيرية بأن سبب هذا التحذير هو الطالب الحثيث السريع الذي يمثله الأجل الذي نعتة نعتاً سببياً بقوله: **(مره سريع).**

ويختتم الصديق خطبته بتركيب استثناء أفاد القصر في قوله ، **(ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطون به الأموات)** لقد استثنى الخطيب من بين ألوان الغبطة وهي

تمني مثل حال الْمُغْتَبَط من غير تمنى زوال نعمته عنه. أقول: استثنى الخطيب غبطة الأموات بما ملكوه من صالح رحلوا به عنا. فإذا كان الأموات قد رحلوا وخلفوا وراءهم عملاً صالحاً اتصلت به حياتهم بعد موتهم ونفعهم بعد الموت ، فإن هذا مما يجب أن يختص به الأحياء ، فإن وجد وجبت الغبطة عليه !!

وفي إحدى خطب الصديق التي يدور موضوعها حول "عظة الموت" نجده - رضي الله عنه - يبني بلاغة نصها على أمرين:^(١)

الأول: أدوات الربط الإضافي.

الثاني: أسلوب الاستفهام.

لقد استهل الخطيب خطبته بخبر طلبي أراد أن يقرر به حقيقة تتصل بنوع العمل الذي يقبله الله من العباد ، ولم يجد الخطيب في سياق هذا الخبر ما يؤكد به خبره ويخصصه سوى أسلوب الاستثناء في قوله: (إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه) فاستثنى من أعمال العبد التي تحوز القبول والرضا من الله كل عمل أراد به صاحبه وجه الله ، وأسقط الخطيب ما دون ذلك من أعمال العبد ، وأنت ترى أن الخطيب قد أراد بهذا الاستثناء أن يخرج من دائرة أعمال العبد كل عمل دخله رياء وعُجْب.

وقد وصل الخطيب الجملة التي افتتح بها خطبته بسلسلة من الجمل كرسست المعنى عبر تراكم إخباري أدته هذه الجمل من خلال أدوات الربط: الفاء الداخلة على فعل الأمر: (فأريدوا الله بأعمالكم) ، حيث أفادت دلالة الفاء هنا التعقيب والإسراع في أن تكون أعمال العبد خالصة لله ، وقد تم العطف على هذه الجملة بجملة أخرى من خلال أداة العطف الواو التي عطفت مضمون الجملة التالية بعدها على مضمون

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٨٢.

الجملة السابقة على الأداة ، وقد أفاد العطف -هنا- درجة من درجات التضاييف المعنوي بين الجملتين ، وقد فسرت الجملة المعطوفة معنى إخلاص العمل لله ، وجعلت مناط هذا الإخلاص "الطاعة" التي أقبل عليها الناس بشغف وحب ولهفة في قوله: "أَتَيْتُمُوهَا" عبر أداة الربط الفاء التي أفادت السرعة في التعبير وعطف عليها بالواو حظاً جعله في صيغة النكرة، كما جعل الطاعة قبله في نفس الصيغة فقال: (فحظُّ ظفرتُم به) وتوالت شجرة العطف التي أسهمت في تراكم المعنى الدلالي لمفهوم الإخلاص لله في قوله: (وضرائب أدَيْتُمُوهَا وسلفٌ قدّمْتوه من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم) وينتقل الخطيب إلي الحديث عن (عظة الموت) من خلال أسلوب الأمر البلاغي الذي أفاد الرجاء في دعوة الخطيب الناس إلي الاعتبار والتفكير؛ الاعتبار بمن مات قبلهم ، والتفكير فيمن كان قبلهم ؛ فقال: (اعتبروا عباد الله بمن مات قبلكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم).

الأمر الثاني: أسلوب الاستفهام الذي تكرر ثمانى مرات ، حاملاً في كل مرة دلالة جديدة وإن بقيت أدواته واحدة وهي (أين) التي سأل بها الخطيب عن المكان وقد لوحظ أن بعض صيغ هذا الاستفهام جاءت دون جواب واكتفى الخطيب بإلقاء السؤال تاركاً جوابه لفطنة المتلقي.

الأول: في قوله: (وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس ؟)

الثاني: في قوله: وأين هم اليوم ؟

لقد تم بناء الاستفهام في الموضوعين عن طريق المقابلة بين حال الذين سبقونا حينما كانوا أحياء ولهم في الدنيا شأن ، وكانت حياتهم متصلة بأسباب جعلتهم يعتقدون الخلود !

وبين حالهم بعد الموت وقد سلبوا كل عزٍ وجاه ! وقد دلّ الاستفهام في الحالة الثانية على التغيّر الذي أفضى إلي الافتقار والذل. وقد أراد الخطيب أن ينبه إلي ذلك

ويرمي إليه ، ثم يأتي الاستفهام الثالث: أين الجبارون ؟ دون جواب وقد دلّ هذا الاستفهام على التنبيه - أيضا- إلي أن مكان الجبارين في الدنيا قد زال ، وأنهم الآن قيد الموت والفناء ، وأن جبروتهم لم ينفعهم فيبقيهم.

وفي الاستفهام الرابع: ترى الخطيب يستفهم عن الأبطال في الحروب من أهل الذكر فيها وتحقيق الغلبة والنصر بها ، أقول: يستفهم الخطيب عن مكانهم بعد الموت ثم يجيب عن السؤال ، فإذا بالجواب يأتي لتقرير حالهم في مكانهم الجديد الذي سكنوه ، في أسوأ موضع وأدنى حال ؛ فقال: (قد تضعض بهم الدهر وصاروا رميماً ، وقد تركت عليهم القالات الخبيثات ، وإنما الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات).

ويقف الخطيب وقفة طويلة أمام الاستفهام الخامس الذي تساءل فيه عن مكان الملوك الذي ملأوا الدنيا عزاً وعمارة ، وقد أجاب بجواب طويل فيه تنبيه على سوء المآل والعاقبة ، حيث طوي الموت ذكرهم وأصبحوا لا شيء ، ثم نبه الخطيب الناس إلي أن الله قد ألقى على هؤلاء الملوك مسؤولية أفعالهم ، وقطع عنهم ما كانوا فيه من شهوة الجاه والعز والمنعة ، وتفرغ المعنى الذي يصور حالهم في الجواب على السؤال عن مكانهم بعد الموت من خلال أداة الربط (الواو) التي عطفت معني ثلاث جمل زاد من معني المعطوف عليه وضوحاً في قوله: (ومضوا والأعمال أعمالهم والدنيا دنيا غيرهم وبقينا خلفاً من بعدهم).

فقد أفادت الجملة الأولى في سياق تراكم عناقيد المعنى في هذا اللون من الربط الإضافي ، أن آثارهم وأعمالهم دالة عليهم منسوبة إليهم ، ثم عطف عليها جملة (والدنيا دنيا غيرهم) التي أفادت أن ملكهم قد آل إلي غيرهم فتمتع به ولم يعد لهم فيه شيء ! وهذه درجة من درجات التحسر المفيد عظة وعبرة. ثم تأتي الجملة الثالثة في قوله: (وبقينا خلفاً من بعدهم) لتؤكد على بيان مبلغ الحيرة التي تلتبس

الناس حين زوال ملك ملوكهم ، وخلفهم لهم ، مما يتوجب معه التنبيه حتى لا يكون المال هو نفس مال ملوكهم ! يقول الخطيب:

(وأيّن الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها ؟ قد بعدوا ونسي ذكرهم، وصاروا كلاً شئ ، ألا وإن الله قد أبقي عليهم التبعات ، وقطع عنهم الشهوات، ومضوا والأعمال أعمالهم والدنيا دنيا غيرهم ، وبقينا خلفاً لهم).

ثم يختم الخطيب جواب الاستفهام الذي طال طويلاً مفرداً كي يقرر حقيقة أمر هؤلاء الملوك بوضوح ، أقول: ختم الخطيب هذا الجواب بجملتين شرطيتين عطفت الأخيرة على الأولى ، وقد تصدرت (إن الشرطية) الشرط فيهما. ومعلوم أنها تفيد وقوع الشرط غير المقطوع بوقوعه في المستقبل ، وأنها قد دخلت - هنا - على الماضي لفظاً ومعنى ، وهذا هو نص الجملتين:

(فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا ، وإن اغتررنا كنا مثلهم)

لقد دلّ مجئ الشرط ماضياً -هنا- على أن رغبة الخطيب في الإشارة بصيغة الماضي في حدوث العبرة هنا يعني رغبته في حصول هذا الشرط ، حتى كأنه أبرزه في معرض الحاصل ، غير أن مجئ الماضي -هنا- مع (إن الشرطية) قد أفاد التعريض والشك في حصول العبرة والعظة بحال هؤلاء الملوك، وقد أدت رغبة الخطيب في حدوث هذه العبرة التي سترتب عليها النجاة، أن تصور غير الواقع واقعاً وتحدث عنه بصيغة الماضي وتلك واحدة من أسرار هذا الأسلوب ، وعطف على هذا التركيب الشرطي تركيباً مماثلاً جاء الشرط فيه أيضاً بصيغة الماضي لفظاً ومعنى في قوله: (وإن اغتررنا كنا مثلهم) فقد تصور الخطيب أن الاغترار قد وقع بالفعل وترتب عليه الجزاء بأن أصبحنا مثلهم ، ومن ثم ترتب على هذه المماثلة سوء المال أيضاً.

وقد بقي الشك معلقاً لوقوع الاغترار القطعي لكل الناس ، أو العبرة المقطوع بها أيضاً ، وكأن المعنى في جملة الشرط مفاده: إن اعتبرنا ولن نعتبر كلنا ، وإن

اغتررنا ، ولن نغتر كلنا ، كان الجواب كذا ... وكذا ، ويأتي الاستفهام السادس ليحمل معنى الاستفهام عن المكان الذي آل إليه أولئك المتأنقون ملبساً ومخبراً الذين أصابهم العجب بشبابهم ، وقد قرر الخطيب الجواب لكي يزيد حقيقة فعل الموت وضوحاً ، وهو فعل يحصد الحياة مهما كانت درجتها وقوتها ، لقد صار هؤلاء الذين كانوا يمتلكون الشباب والجمال ، أقول: صاروا تراباً ، وصار فعلهم الذي انحرف بهم عن المسلك القويم حسرة عليهم، يقول الخطيب: (أين الوضاء الحسنه وجوهم ، المعجبون بشبابهم؟ صاروا تراباً ، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم).

ثم ينقلنا الخطيب إلي الاستفهام السابع الذي رمى من ورائه إلي السؤال عن تعيين المكان الذي آل إليه الذين بنوا المدائن وحصونها بالحوائط ، وفعلوا فيها العجائب. هذا هو المقصد الظاهر من معنى الاستفهام ، لكن وراء هذا الاستفهام ظلالاً أخرى يقصدها الخطيب ؛ أليس في هذا الاستفهام تنبيهاً على أن هذه المدائن وتلك الحصون لم تحل دون فناء هؤلاء الملوك ؟ ، لقد جاء الجواب مؤكداً على هذا المعنى حاملاً في تلافيفه ألواناً من الحسرة والندامة. لقد حصدهم الموت وتركوا ما صنعوا لغيرهم يتمتع به. وقد أكد الخطيب تلك الدلالة بالقرآن حيث تناص مع قوله تعالى (هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا)^(١)

وقد أفاد الاستفهام بـ (هل) في الآية التي استشهد بها الخطيب -هنا- أقول: أفاد طلب التصديق من كون أن هؤلاء الذين بنوا المدائن وصنعوا العجائب قد طويت صفحاتهم ولم يعد يشعر بهم أحد ، ولم تعد تسمع لهم صوتاً خفياً. ويلاحظ أن هل - هنا- قد دخلت على الفعل ، وأن هذا هو الأنسب لها لأنها تميل إلي الأفعال المضارعة حيث تخلصها إلي الاستقبال لأنها تفيد التصديق، والتصديق حكم ، والحكم - كما يقول البلاغيون - يتوجه إلي الصفات والأفعال ، وهذه رحم بينها وبين الأفعال

(١) سورة مريم: الآية ٩٨.

، والرحم الثانية أنها تعمل في الأفعال من حيث إنها تخلص المضارع إلي الاستقبال ، وهذا نوع من التأثير، ولا يكون التأثير إلا حيث يكون الاختصاص وما يشبهه.^(١)

يقول الصديق: (أين الذين بنوا المدائن وَحَصَّنُوها بالحوائط ، وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاوية ، وهم في ظلمات القبور، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا).

ثم ختم الخطيب استفهاماته عن الموت باستفهامه الثامن الذي توجه به إلي جمهور المخاطبين يسألهم عن أبنائهم وإخوانهم ؛ أين رحلوا ؟ وقد رمي الخطيب من وراء إلقاء هذا السؤال إلي تنبيه المخاطبين إلي حتمية الموت وما يترتب عليه من جزاء يتعلق بفعل المرء في الدنيا ، وقد ألحق الصديق الجواب بالسؤال، وجاء الجواب من خلال بنية الربط الإضافي السببي بالفاء التي دخلت على الفعل مرتين ، فدلّت في المرة الأولى على سرعة الحساب بعد انقضاء الأجل في قوله:

(قد انتهت بهم آجالهم فوردوا على ما قدموا) ثم ترتب على ورودهم على ما قدموا من عمل ، أن مكثوا عليه فكان جزاءهم فقال: (فَحُلُّوا عليه) وعطف عليه بالواو جملة اتصلت دلالاتها به ، حيث إن هذا المكث في القبر بعد الحساب إمّا أن يكون مكث شقاء أو مكث سعادة !

يقول الصديق: (أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم ؟ قد انتهت بهم آجالهم، فوردوا على ما قدموا ، فَحُلُّوا عليه وأقاموا للشَّقْوة وللِسعادة فيما بعد الموت).

وقد تحققت المقصدية الإعلامية من النص في بنية ختامه ، حيث جاء الأمر معلناً أن كل العباد مدينون لله ، ومن ثم جاء ربط المعنى في جملة الأمر بالمعنى في

(١) انظر محمد أبو موسى: دلالات التراكيب ، ص ٢٢٦.

الجملة المعطوفة عليها ليؤكد أن ما عند الله من رحمة وثواب لا يدركه العباد إلا بالطاعة واتباع أوامره سبحانه وتعالى ؛ يقول الصديق: **(واعلموا أنكم عبيد مدينون، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته)** ونبه الصديق في ختام حديثه الناس إلي أن الخير لا ينتهي بصاحبه إلي النار أبداً ، وكذلك الشر لا يفضي إلي الجنة !

وقد بنى الخطيب هذا المعنى من خلال أسلوب التضاد الذي نيل به حديثه. وقد بناء من خلال التوازي التركيبي لجملتيه النافيتين للجنس هكذا:

١. لا خير بخير بعده النارُ

٢. ولا شر بشر بعده الجنةُ

ثالثاً: خطبة للصديق يتحدث فيها عن أنواع ملوك الدنيا

ومن خطب الصديق التي يناقش فيها أنواع الحكام ، خطبة تحدث فيها عن أنواع الملوك في الدنيا^(١).

وقد جاء استهلال الخطبة من خلال الجملة الاسمية المنسوخة (إنَّ أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك) وقد تم تأكيدها بـ (إنَّ) ومن ثم فضربها طلبياً، وقد تقدم خبرها: **(أشقى الناس في الدنيا والآخرة)** على اسمها **(الملوك)** وذلك للاهتمام بمضمونه الذي جاء حاملاً رسالة من الخطيب إلي الناس.

وقد ترتب على هذا الخبر مباشرة أن رفع الناس رؤوسهم معبرين بهذه الحركة عن عدم قبولهم لمضمون هذا الخبر ، وترتب على ذلك - أيضاً - ربط هذا الأمر برد فعل الخطيب الذي ألقى سؤالاً عليهم: **(ما لكم يا معشر الناس؟)** وقد أفاد السؤال - هنا - التعبير عن دهشة الصديق من سلوك هؤلاء الناس.

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٨٣.

ثم إنه استأنف كلامه إليهم بخبر جديد أكده بأكثر من مؤكد ؛ حيث أكده بـ (إنَّ) واللام. واتهمهم فيه بالطعن والقبح والعجلة ! وقد استخدم الصديق أسلوب الشرط غير الجازم بـ (إذا) للتعبير عن استشرافه المستقبل حينما أخبر الناس أن من الملوك صنفًا إذا ملك تراه لا يرضي بما يملك ، ورغب فيما في يَدَيِّ غيره.

ويستوقفنا هذا الأسلوب في قوله: (إن من الملوك من إذا ملك زهده الله فيما في يده ، ورغبه فيما في يدي غيره ، وانتقصه شطر أجله وأشرب قلبه الإشفاق)

لقد دخلت إذا هنا على الماضي لفظاً ومعنى ، ومعلوم أنها تفيد شرطاً مقطوعاً بوقوعه في المستقبل وأنها تدخل على المضارع وذلك لكونها تعلق جزاءه على شرطه في الاستقبال ، ومن ثم فإن الشرط والجزاء معها لا يصح أن يكونا ماضيين لفظاً ومعنى لأن ذلك ينافي كونهما للمستقبل.

إن إتيان الصديق في تمثيله لأحد أصناف الملوك في سياق تركيب شرطي بصيغة الماضي يشير -هنا- إلي رغبته في حصول الشرط حتى كأنه أبرزه في معرض الحاصل ، ومن ثم تصور غير الواقع واقعاً ، وتحدث عنه بصيغة الماضي ؛ وذلك للتعريض بهذا الصنف من الملوك إذا ملك حيث تنتابه شهوة الملك ، ويضيق ما في يده عن الوفاء بطموحه ، وقد عبر جواب الشرط عن هذا المعنى خير تعبير من خلال الصيغة الصرفية (فَعَلُ) للفعل زَهَدَ ، وقد عطف على هذا الفعل فعلاً آخر بنفس صيغته الصرفية فَعَل وهو الفعل: (رَغَبَ) في قوله (وَرَغَبَهُ فيما في يدي غيره).

وقد جاء العطف - هنا- بالواو مناسباً بين فعل الجزاء (زَهَدَهُ) والفعل المعطوف عليه (رَغَبَهُ) حيث جاءت هذه الرغبة في امتلاك ما في أيدي الناس من خلال انعدام الإحساس لدى هذا الملك بقيمة ما يملك ؛ إذ إنه يراه قليلاً، ومن ثم يريد أن يضم إليه ما في يد غيره ! كما تراكمت الدلالة المعنوية من خلال توالي الربط الإضافي في جملة الجزاء ؛ حيث انتقص الله هذا الملك نصف عمره في اللهث وراء طلب الجاه والملك. وعطف أيضاً على هذا المعنى معنى آخر وهو تَلَبُّسه بالخوف

وهو الملك. وقد صور هذا التلبيث من خلال تصوير الإشفاق (الخوف) في صورة شيء مادي محسوس يتلمس طريقه إلي قلب هذا الملك كي يستقر فيه !!

وقد عطف الخطيب على جملة (إن من الملوك) جملة اسمية، وجاءت أداة الربط - هنا - الفاء التي أفادت معنى السببية وعطف على هذه الجملة، وهي (فهو يحسد) خمس جمل جاءت أداة الربط الإضافي فيها الواو في قوله: (فهو يحسد على القليل ، ويتسخط الكثير ، ويسأم الرخاء ، وتنقطع عنه لذة البهاء ، لا يستعمل العبرة، ولا يسكن إلي الثقة).

وقد استوعب المعنى في هذه الجمل المعاني التي جاءت في جملة الجزاء ومعطوفاتها.

ويلاحظ أن الجملة الأولى في الشاهد - هنا - جاءت اسمية مكونة من ضمير الغائب (هو) مبتدأ والخبر جملة فعلية (يحسد ...) وقد جاءت الجمل الأربع المعطوفة على هذه الجملة متكئة على الحذف البلاغي ؛ حيث تم حذف المسند إليه في هذه الجمل لدلالة المسند إليه في الجملة الأولى عليه من ناحية، ولإبراز هذه الأخبار المعطوفة في معرض الاهتمام لدلالاتها على صفات هذا الصنف من الملوك من ناحية ثانية ، ومن ناحية ثالثة أن حذف المسند إليه في هذه الجمل جعل بناء العبارة فيه يتكئ على (إثارة الحس والفكر حين تعول على النفس والخيال في ملء جزء المعنى الذي لم يذكر لفظاً دالاً عليه)^(١)

وأود أن أقول أيضاً: إنَّ حذف المسند إليه في الجمل الخمس التي سبقتها جملة ذكر فيها المسند إليه من خلال ضمير الغائب ← (هو) العائد على ذلك الملك الذي تم وصفه من خلال هذه الجمل الست ، وبالتالي فإن الحذف - هنا أيضاً -

(١) محمد أبو موسى: خصائص التراكيب ، ص ٢١٣.

قد تم للإشارة إلي أن الخبر لا يتوهم أن يكون لغيره ؛ أي لغير هذا المبتدأ ويكون وضع هذه الجمل كما وردت بالنص هكذا:

١. فهو يَحْسُدُ على القليل

٢. و ... يتسخط الكثير

٣. و ... يسأم الرخاء

٤. و ... تتقطع عنه لذة البهاء

٥. و ... لا يستعمل العبرة

٦. و ... لا يسكن إلي الثقة

ويستوقفنا قول الصديق: (فهو كالدرهم القسي ، والسَّراب الخادع، جذل الظاهر، حزين الباطن)

حيث يلاحظ -هنا- أن الخطيب قد لجأ إلي الربط الإضافي بصورة لافتة كي يحقق أقصى درجات تماسك نصه الذي يفضي إلي رسم صورة صادقة لهذا الصنف من الملوك.

فقد ترتب على الصفات السابقة المتلاحقة أن صار هذا الملك يشبه الدرهم الزائف بجامع انعدام القيمة وغياب الأثر.

وفي صورة ثانية لهذا الملك: عاد الخطيب مرة أخرى إلي حذف المسند إليه اكتفاءً بالإشارة إليه من خلال سياق الربط الإضافي بالواو في قوله: (والسراب الخادع) والتقدير: وهو السراب الخادع ؛ حيث شبه هذا الملك بالسراب بجامع الخداع والمراوغة ، وانعدام القيمة ، والصورة تبرز الأثر النفسي لتشبيه الملك بالسراب الذي يظنه الظمآن ماءً وما هو بماء ، وكأن سياق الحال يقول: هذا ملك وليس ملكا !!

ولاحظ أيضا حذف المسند إليه في قوله:

جَذَلَ الظاهر ؛ أي هو جَذَلَ الظاهر ، وقوله: حزين الباطن ؛ أي هو حزين الباطن. وقد جمع الخطيب -هنا- بين صورتين متضادتين ؛ الأولى ظاهرة والأخرى خفية ، وهما صورتان تكشفان زيف هذا الملك أمام نفسه.

وفي قول الصديق: (فإذا وَجِبَتْ نفسه ، ونُضِبَ عمره ، وضحا ظله، حاسبه الله فأشد حاسبه ، وأقل عفوهُ).

يلاحظ أن بلاغة هذا القول تكمن في الآتي:

١. بنى الخطيب شرطه على التصوير البياني من خلال المجاز الإسنادي في قوله:

١. وَجِبَتْ نفسه

٢. وَنُضِبَ عمره

٣. وَضَحَا ظِلُّهُ

فالمجاز الإسنادي هو (إسناد الفعل أو معناه إلي ملابس له ، غير ما هو له بتأول ، ولل فعل ملابسات شتى: يلبس الفاعل ، والمفعول به ، والمصدر ، والزمان والمكان)^(١)

وبالنظر في الجمل السابقة نجد أن الخطيب قد نسب فعل الوجيب إلي النفس، أي ماتت نفسه والنفس لا تموت وإنما يقع عليها فعل الموت ، فنسبة الوجيب إلي النفس - هنا- وقعت بالتأول ، وهكذا أيضا نسبة النضوب إلي العمر، والموت إلي الظل.

(١) القزويني: الإيضاح ، ص ٥١.

٣. جاء فعل الشرط والجزاء ماضيين لفظاً ومعنى بما لا يتفق ودلالة (إذا) على الشرط المقطوع بوقوعه في المستقبل ، وقد دلّ مجئ الشرط ماضياً هنا على رغبة الخطيب في حصول الشرط حتى كأنه أبرزه في معرض الحاصل بصيغة الماضي ، فجعل نفس هذا الملك تموت ، وعمره ينتهي ، وظله وجاهه ينحسر ، ومن ثم يترتب على ذلك حسابه أشد الحساب ، وانعدام حظه في العفو عنه ، والتجاوز عن ذنوبه !!

٤. وقد جعل الصديق مناط الحكم الصحيح في العمل بكتاب الله وسنة نبيه الكريم والإيمان بالله.

يقول الصديق: (وخير الملوك من آمن بالله وحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ).

وقد ختم الصديق حديثه بالجملة الفعلية المضارعة التي دل فعلها على الاستقبال الذي استشرّف من خلال صياغته مستقبل الأمة من بعده ، وقد بنى الخطيب المفعول به في هذه الجملة على التصوير البياني المؤثر ؛ يقول الصديق: (وسترون بعدي ملكاً عضوضاً ، وأمة شعاعاً ، ودماً مفاعاً).

وقد لعب ظرف المكان دوراً مهماً في تخصيص مضمون الجملة ؛ حيث دلّ على أن هذه الرؤية الاستشرافية لمستقبل قيادة الأمة ستتحول إلي ملك لا تتداول فيه السلطة بين الناس.

وقد بنى الخطيب هذا المعنى من خلال التصوير الكنائي في قوله: (مُلكاً عضُوضاً) أي ملك يعرض عليه صاحبه ، فلا يتركه لغيره ؛ كناية عن الاستحواذ والاستئثار.

وقد عطف عليه أيضاً قوله: (أمة شعاعاً) كناية عن التفرق والتشردم ، كذلك قوله: (ودماً مفاعاً) ليكني عن قيام هذا الملك الذي استأثر به صاحبه على إراقة الدماء دون جرح !

وقد عطف الخطيب على هذه الجملة جملة شرطية غير جازمة علق جزاءها على شرطها ، وقد صاغ شرطه في الزمن الماضي لتأكيد أن هذه الرؤية للمستقبل واقعة لا محالة ، ومن ثم أبرز الخطيب الشرط -هنا- في معرض الأمر الحاصل رغبة منه في حصوله ، وذلك لامتلاكه من الأدلة ما يؤكد وقوعه ، فقال:

(فإذا كانت للباطل نزوة ، ولأهل الحق جولة يعفو لها الأثر ، وتموت للسنن، فالزموا المساجد ، واستشيروا القرآن ، والزموا الجماعة).

إن تأمل البناء الداخلي لجملة الشرط يكشف عن الآتي:

١. أن جملة (كان ...) الماضية جاء فيها خبر كان متقدماً على اسمها هكذا: (للباطل نزوة) بدلاً من نزوة للباطل ، وقد عطف عليها -أيضاً- جملة اسمية تقدم فيها الخبر على المبتدأ ؛ هكذا (ولأهل الحق جولة يعفو لها الأثر ، وتموت السنن).

٢. جاء تقديم الخبر في جملة (كان) ومعطوفها للاهتمام والعناية فهو ركن المعنى الأصيل الذي بنى عليه الشرط ، إذ إن أساس هذه الرؤية الاستشراقية من الصديق -رضي الله عنه- هو هذا النزاع بين الباطل وأهل الحق!

٣. جاء الاسم في الجملة المعطوفة على الجملة التي تصدرتها كان الناقصة في هذا التركيب ؛ أقول: جاء هذا الاسم موصوفاً بجملة فعلية عطفت عليها جملة فعلية أخرى ، وقد أفاد الوصف -هنا- الديمومة والثبات من كون أن جولة أهل الحق مع الباطل سوف تكون سبباً في إحداث الفتنة بين الناس ، تلك الفتنة التي سيزول معها كل أثر طيب ، وتموت السنن.

٤. في جملتي الوصف للمبتدأ في هذه الجملة المعطوفة تصوير بياني أخذ ففي قوله: (يعفو لها الأثر) كناية عن الزوال والضياع الذي تخلفه الحسرة على هذا الحق.

وفي قوله: (وتموت السنن) تصوير استعاري ؛ حيث صور الخطيب سنن الإسلام بإنسان عزيز يموت مخلفاً بموته حسرة وحزناً أليماً. كما أن في نسبة الموت إلي السنن - وهي من الأمور المعنوية - مجازاً إسنادياً حيث نسب الخطيب فعل الموت إلي ملابس له غير ما هو له بتأول وهو الموت.

٣. جاءت جملة الجزاء أمرية ارتبط فيها الجزاء بالفاء وجوباً ، وقد تراكم المعنى الدلالي لهذا الجزاء من خلال شبكة الربط الإضافي بين فعل الجزاء (فالزموا) وفعلين آخرين هما: استشيروا و"الزموا" مرة أخرى ، وقد لعبت أداة الربط الواو دوراً في ربط خيوط المعنى بين هذه الأفعال التي دلت على طلب الرجاء.

رابعاً: خطبته رضي الله عنه في الأنصار ودلالات حذف المفعول به

يلاحظ أن هذه الخطبة قد بنيت على مرحلتين:^(١)

الأولى: ويمثلها الحوار الجانبي بين الأنصار وسيدنا أبي بكر ؛ حيث غضبت الأنصار لمساواته - رضي الله عنه - في تقسيم مال وصله من البحرين بين الناس ، وقد طلبت الأنصار من الصديق أن يفضلها ، فقال لهم مقالة حملت رده من خلال سياق التركيب الشرطي الذي جاء الشرط والجزاء فيه ماضيين ؛ حيث قال: (إن أردتم أن أفضلكم صار ما عملتموه للدنيا ، وإن صبرتم كان ذلك لله عز وجل).

لقد دخلت (إن) الشرطية على الشرط وجوابه ، وهما -هنا- ماضيان خلافاً لما يجب أن يكون من شأن فعليهما ومجيئهما في الزمن المضارع لأن (إن) الشرطية تقيد الشرط غير المقطوع بوقوعه ، ويتعلق جزاؤها بشرطها ، ومن ثم فإن مجيء الماضي معها يكون بتأول.

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٨٦.

ومن ثم فالصديق -هنا- ينعي على الأنصار هذا الذي وقع منهم من أمر غضبهم لمساواة الصديق بين الناس في تقسيم مال جاءه من البحرين ، وأن هذا الذي وقع منهم ما كان ينبغي أن يكون ممن هم في منزلتهم إلا على سبيل الشك والاحتمال الغادر.

كما أن التعبير بالماضي - هنا - يفيد التعريض بالأنصار لسوء مسلكهم في هذا الأمر ، لأن منزلتهم في الإسلام أكبر من أن يأتوا بهذا الفعل !

ولما كان الأنصار يرغبون في أن يفضلوا الناس في شأن قسمة المال عبّر الخطيب عن رغبتهم في حصول الشرط حتى كأنه أبرزه لهم في معرض الحصول. وكان من شدة هذه الرغبة أن تصور الخطيب غير الواقع وهو ترفع الأنصار عن الانزلاق في طلب المساواة ، ومن ثم يصير ما عملوه للدنيا وليس للآخرة، أقول: تصور غير الواقع واقعاً وتحدث عنه بصيغة الماضي.

وقد عطف الخطيب على جملة الشرط هذه جملة شرط أخرى يغاير معناها معنى الجملة الأولى ، وذلك بهدف إبراز أثر الصبر في بلوغ رضا الله والجنة؛ فقال لهم: (وإن صبرتم كان ذلك لله عز وجل).

أمّا نص خطاب الصديق إلي الأنصار فقد استهله بالنداء: (يا معشر الأنصار) ، وأداة النداء - هنا- تفيد القرب ، وقد جاء المنادى مضافاً ، وقد أفاد تركيب الإضافة التعريف بهذه الجماعة من بين جماعات المسلمين ، وقد اعتمدت الجملة الندائية في بناء دلالتها على بعض أدوات الربط الإضافي؛ وهي: الواو. وكذا على الربط الصوتي من خلال السجع الذي وقع بين الجمل الآتية:

١. إنا آويناكم في ظلالنا ، وشاطرناكم في أموالنا ، ونصرتناكم بأنفسنا.

٢. وإن لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد ، وإن طال به الأمد.

وقد جاء المنادى به جملة شرطية في قوله: (إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَقُولُوا إِنَّا آوَيْنَاكُمْ فِي ظِلَالِنَا ، وَشَاطَرْنَاكُمْ فِي أَمْوَالِنَا ، وَنَصَرْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا قَتَلْتُمْ ...)

ويلاحظ أن جملة الجزاء جملة قولية حذف فيها مقول القول لدلالة الشرط عليه ، كما أن الشرط والجزاء جاءا في الزمن الماضي وذلك لرغبة الخطيب في حصول الشرط ، حتى كأنه أبرزه -هنا- في معرض الحاصل، فتصور غير الواقع من الأنصار واقعا وذلك لوجود الشواهد الدالة عليه من حيث غضبهم وطلبهم التفضيل على الناس ، وقد قام الشاهد الشعري بدور التمثيل للحالة التي يتحدث عنها الخطيب ، فشبه فضل الأنصار على المهاجرين بفضل بني جعفر على طفيل الغنوي وقومه ، حيث (كانوا أفسخ صدرا ، وأكرم نفسا وأبر برهط طفيل من كل ذي بر ، فلو أن هذا الرهط كلفوا أهمم مثل ما كلفوا بني جعفر لملت الأم).^(١)

ويلاحظ أن الشاهد الشعري المتمثل به -هنا- قد حذف في كل فعل فيه مفعوله، ولهذا الحذف دلالة في قول طفيل: (لَمَلْتُ ، وَأَدْفَأْتُ ، وَأُظْلَمْتُ ، وَأَلْجَأُوا)

ويأتي تعليق عبدالقاهر على هذا الشاهد ليكشف - لنا - عن قيمة هذا التمثيل في عبارة الصديق التي توجه بها إلي الأنصار ، يقول عبدالقاهر: إن في هذه الأبيات: (حذف مفعول مقصود قصده في أربعة مواضع قوله: " لَمَلْتُ " و " أَلْجَأُوا " و " أَدْفَأْتُ " و " أُظْلَمْتُ " لأن الأصل: (لملتنا) و " أَلْجَأُونَا إِلِي حُجَرَاتِ أَدْفَأْتَنَا وَأُظْلَمْتَنَا) إلا أن الحال على ما ذكرت لك ، من أنه في حدّ المتناسي حتى كأنه لا قصد إلي مفعول ، وكأن الفعل قد أبهم أمره فلم يقصد به قصد شئ يقع عليه، كما يكون إذا قلت: (قد ملّ فلان) تريد أن تقول: قد دخله الملل من غير أن تخص شيئا ، بل لا تزيد على

(١) محمد أبو موسى: خصائص التراكيب: ص ٢٧٧.

أن تجعل الملل من صفته ، كما تقول: (هذا بيت يُدْفَى وَيُظْلُ) تريد أنه بهذه الصفة^(١).

ويحلل عبدالقاهر هذا الشاهد بما يكشف عن دلالة حذف هذه المفاعيل ودور هذا الحذف في إبراز المعاني الثواني فيقول:

(واعلم أن لك في قوله: "أَجَرْتُ" و"مَلْتُ" فائدة أخرى زائدة على ما ذكرت من توفير العناية على إثبات الفعل ، وهي أن تقول: كان من سوء بلاء القوم وتكذيبهم عن القتال ما يُجَرُّ مثله ، وما القضية فيه أنه لا يتفق على قوم إلا خرس شاعرهم فلم يستطع نطقاً وتعديتك الفعل تمنع من هذا المعنى ، لأنك إذا قلت: "ولكن الرماح أجزتني" لم يكن أن يُتَأَوَّلَ على معنى أنه كان منها ما شأن مثله أن يُجَرَّ، قضية مستمرة في كل شاعر قوم ، بل قد يجوز أن يوجد مثله في قوم آخرين فلا يُجَرَّ شاعرهم.

ونظيره أنك تقول: " قد كان منك ما يؤلم" تريد ما الشرط في مثله أن يؤلم كل أحد وكل إنسان – ولو قلت: "ما يؤلمني" لم يفد ذلك ، لأنه قد يجوز أن يؤلمك الشيء لا يؤلم غيرك".

وهكذا قوله: "ولو أن أَمَّنَّا تُلَاقِي الذي لَا قُوَّةَ مِنَّا لَمَلَّتْ" ، يتضمن أن من حكم مثله في كل أم أن تمل وتسأم ، وأن المشقة في ذلك إلي حد يعلم أن الأم تمل له الابن وتبترم به مع ما في طباع الأمهات من الصبر على المكاره في مصالح الأولاد. وذلك أنه وإن قال: "أَمَّنَّا ، فإن المعنى على أن ذلك حكم كل أم مع أولادها. ولو قلت: "لَمَلَّتْنَا" لم يحتل ذلك لأنه يجري مجرى أن تقول: (لو لَقِيتُ أَمَّنَّا ذلك لدخلها ما يملها منا" وإذا قلت: "ما يملها منا" فَقَيَّدَتْ لم يصلح لأن يُراد به معنى

(١) دلائل الإعجاز: ص ١٥٩.

العموم وأنه بحيث يُملُّ كُلُّ أَمٍّ من كل ابن. وكذلك قوله: (إِلي حُجرات أدفأت وأظَلَّتِ)، لأن فيه معنى قولك: (حُجرات من شأن مثلها أن تُدْفئ وتظل)، أي هي بالصفة التي إذا كان البيت عليها أدفأ وأظَلَّ. ولا يجيئ هذا المعنى مع إظهار المفعول؛ إذ لا تقول: (حُجرات من شأن مثلها أن تدفننا وتظلنا ، هذا لغو من الكلام).^(١)

(١) دلائل الإعجاز: ص ١٥٩-١٦١.

المبحث الثاني
أدب الوصية في نثر الصديق
دراسة في دلالة التراكم

شكلت الوصية ملمحاً من ملامح نثر الصديق رضي الله عنه ، وقد دار موضوعها حول الدعوة إلى التقوى ، والالتزام بقواعد الدين الحنيف في مجال الفتوحات الإسلامية.

وإذا كانت الوصية تعتمد أسلوب الأمر في الغالب الأعم ، فإن هذا الأمر كانت له وظائف بلاغية ؛ كشفت عنها التراكم التي وردت بها ، والسياق العام للنص.

ونذهب إلى جلاء ملامح بلاغة النص في نصوص النثر عند أبي بكر الصديق ؛ تلك النصوص التي تمثل أدب الوصية عنده رضي الله عنه ؛ فهذه خطبة من بين خطبه العامة التي تتحدث عن أثر الوصية في تربية النفس على المنهج السليم^(١).

فبعد أن حمد الله وأطال في حمده بما يليق بالذات العلية ، وأقر بالشهادتين تحدث عن موضوع خطبته وهو الوصية ، فاستهل النص بالجملة الندائية (أيها الناس) وقد حذفت الأداة من هذه الجملة لتفيد القرب والسرعة ، وقد حملت الجملة الندائية (المنادى به) مضمون الوصية التي يريد الصديق - رضي الله عنه - إبلاغها للناس.

وقد جاءت هذه الجملة خبرية ، حيث عبرت عن دور الحاكم في توجيه رعيته نحو الخير ، وهل هناك خير أرفع من انتقاء الله في كل أمر وعلى كل حال ، كما أن خبرها جاء في صيغة المضارع الذي أفاد الاستمرار ؛ أعني استمرار طلبه - هنا - من رعيته تعهد النفس بالتقوى منها في الحياة فقال:

(إني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كل أمر ، وعلى كل حال)

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٨٤.

ولما كان الالتزام بالحق في أمر محبوبٍ أو مكروه مما يتصل بالنقوى جاء عطف الجملة التي تضمنت هذا المعنى على جملة النداء الافتتاحية ، فقال: (لزوم الحق فيما أحببتكم وكرهتكم).

وقد عطف الخطيب على الجملة الندائية الممتدة التي أفادت الإيحاء بالالتزام بالحق في الأمور المحبوبة وكذا الأمور المكروهة ، أقول: عطف عليها جملة اتصل المعنى فيها بسبب ووشيجة من المعنى السابق ؛ حيث أفاد المعنى فيها أن الحديث الصادق هو الحديث الموسوم بالخير دون غيره من أنماط الحديث، فقال:

(فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير)

وقد جاء الربط الإضافي - هنا- من خلال الفاء التي رتبت وأسرعت وعقبت وذيلت هذا المعنى وعلقته بالمعنى السابق عليه.

وقد استعان الخطيب بالجملة الشرطية للتعبير عن أثر الكذب في السلوك الإنساني، حيث علق الفجور وهو إتيان السلوك الخارج عن مألوف العادة، وتجاوز العرف، أقول: علق الفجور في المستقبل على التخلُّق بالكذب قولاً وفعلًا، فقال: (من يكذب يفجر) ، وعطف على هذه الجملة جملة شرطية علق فيها جزاءها على شرطها؛ فعلق هلاك الإنسان على فعله الفجور واستمراره فيه، في قوله:

(ومن يفجر يهلك)

وعطف على هاتين الجملتين الشرطيتين أسلوب تحذير حذر فيه الناس من الفجر والزهو ، فقال:

(وإياكم والفخر) أي أحذركم الفخر ، وما يترتب عليه من عواقب وخيمة، وقد تضمن أسلوب التحذير -هنا- معنى الوصية ، وقد فندَ -لنا- الأسباب التي دعت إلي تحذيره ، والتي تمثلت في أن من كان أصله التراب ليس من حقه أن يفخر ، وقد جاء هذا المعنى من خلال أسلوب الاستفهام التوبيخي الذي حمل معنى التقرع، فقال:

(وما فخر من خلق من التراب ، وإلى التراب يعود ؟)

ويأتي الخطيب بجواب الاستفهام ليؤكد صدق مضمونه ؛ فيقول:

(هو اليوم حي وغداً ميت) ، وأنت ترى الخطيب في هذا التركيب قد عطف جملة على جملة ، وأن الجملتين متقابلتان ، وأن المقابلة قد رسمت صورتين؛ إحداهما تمثل الحضور والأخرى تمثل الغياب ، وأنها قد وقعت في اللفظ بين الجملتين كلمة: اليوم في مقابل غدا و"حي" في مقابل "ميت" وأن قول الخطيب: ←

١. هو اليوم حي ← تمثل حالة الوجود والحضور .

٢. أما قوله: وغداً ميت فتمثل حالة الغياب.

وعلى هذا النحو قامت المقابلة على التضاد بين معنيين ؛ أحدهما حاضر والآخر غائب. وقد تبذرت لنا القيمة الفنية لهذا الأسلوب البديعي من خلال قدرته على مناقشة شعورنا عن طريق الإبانة الخاطفة عن وجهي الحياة ؛ الوجود والعدم، وذلك من خلال تآزر وسائل التركيب اللغوي بين الجملتين ، حيث اكتملت أركان الجملة الأولى من خلال حضور المسند إليه.

(هو) + الظرف (اليوم + المسند "حي") ، بينما غاب المسند إليه من الجملة الثانية: (?) الظرف (غدا) + المسند (ميت).

ولعل حذف المبتدأ (المسند إليه) من الجملة الثانية قد أسهم في تجسيد المقابلة وإبراز دلالتها في المعنى ، حيث إن غياب المسند -هنا- ، يسهم في إبراز قيمة المسند في دلالاته على معنى الغياب الذي يسلب كل فخر عند الإنسان إذ يؤكد على نقصه ، وبالتالي كان الحذف -هنا- كما يقول عبدالقاهر هو (قلادة الجيد وقاعدة التجويد).

وهكذا يمكننا أن نفهم دلالات المعنى الذي تحققه المقابلة بين الجملتين من نحو (إقامة التجانس ، واطراد الترابط وتواصل العلاقات بين جنبات السياق، بغض النظر عن طبيعة هذه العلاقات ، ضدية أو مطردة)^(١)

وقد ترتب على قول الخطيب: (هو اليوم حي وغداً ميت) الدعوة إلى سرعة العمل، واعتبار النفس في عداد الموتى. وقد أصاب الربط بالفاء هنا موقعاً حسناً في قول الخطيب:

(فاعملوا وُعدُّوا أنفسكم في الموتى)

لقد أعطت الفاء - هنا- مسوغاً للعمل لأنه الزاد الوحيد الذي سينفع صاحبه بعد الموت ، وعدم تحديد الخطيب لطبيعة العمل الذي يدعو الناس إليه يدل على طلب حصول العمل أيّاً كان نوعه صغيراً أو كبيراً ، كما عطف على الدعوة إلى العمل دعوة أخرى تمثلت في الإعداد للموت القادم لا محالة.

وقد تلاحظ أن الوصية مبنية - كما قلنا - على صيغ الأمر الذي خرج على مقتضى الظاهر إلى علل بلاغية ؛ أشهرها في هذا الباب الحث والرجاء والاستعداد ونحوها من المعاني التي تتصل بالوصية.

ومما يتصل بالوصية عند الصديق دعوة الناس إلى عدم الخوض في الأمور الملبسة التي تمثل إشكالاً ، وتركها لله وذلك من خلال حث الناس على الالتزام برد كل أمر ملبس إلى علم الله ؛ فقال:

(وما أَشْكَلْ عليكم في فردوا عِلْمَهُ إلى الله)

(١) منير سلطان: البديع تأصيل وتجديد ، ص ١١٦ .

وانظر إلي هذا التركيب الأمري المشعر بالشرط في قوله: (وقدموا لأنفسكم خيراً تجدوه محضراً) الذي يعلق وجود الخير حاضراً وملازماً لصاحبه في الآخرة على فعله له وسعيه إليه ، ومن ثم تعلق حضور هذا الخير للنفس على السعي لتقدمه.

وقد ربط الخطيب التقوى باعتبارها فعلاً إسلامياً أصيلاً بمراقبة النفس في حركاتها وسكناتها ، وكذا الاعتبار بالأهم التي مضت قبلنا من خلال أفعال الأمر: (اتقوا) و (راقبوه) ، و (اعتبروا) وهي تفيد الحث والرجاء.

وفي ختام الخطبة تأتي صيحة التحذير التي تتسلل إلي نفوس الناس معلنة حتمية الحساب والجزاء والقيامة ، وأن مناط هذا الحساب هو العمل صغيره وكبيره. لذا كان أسلوب التحذير في النهاية مناسباً لهذه الدعوة في قوله: (أنفسكم أنفسكم) أي الزموا أنفسكم وهي دعوة لمحاسبة الذات والانشغال بها عن الغير طلباً للنجاة ؛ يقول الخطيب:

(واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم ، والجزاء بأعمالكم صغيرها وكبيرها إلا ما غفر الله ، إنه غفور رحيم).

وهذه خطبة أخرى مجالها الوصية أيضاً ، وموضوعها تقوى الله المرتبط بالثناء عليه بما هو أهله ، والدعوة إلي خلط الرغبة في التقوى بالرهبة منه - سبحانه وتعالى- والجمع بين الإلحاف والسؤال ، وقد مثَّلَ الصديق في هذا الشأن بثناء الله على سيدنا زكريا وعلى أهل بيته ، واستدعى في ذلك ما ورد في شأنهم بالقرآن الكريم من مسارعتهم في الخير ، ودعائهم لله - سبحانه وتعالى - رغباً ورهباً ، ثم الإخبار عنهم بأنهم كانوا خاشعين.

وقد أسهمت أدوات الربط الإضافي -هنا- في تراكم الدلالة في بناء معنى نص الخطبة ؛ وهو التقوى من خلال الواو والفاء ، فقال:

(أوصيكم بتقوى الله ، وأن تثبوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرَّهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسائلة ، فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال: "إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا خاشعين")

وعبر الخطيب عن ضالة عَرَض الدنيا ، وارتفاع قيمة الآخرة من خلال أسلوب التضاد في قوله: (وعوضكم بالقليل الفاني الكثير الباقي) وقد كشف أسلوب التضاد -هنا- عن ضالة الدنيا وحقارتها.

وقد عبر الصديق عن قيمة القرآن في حياة المسلم ، من خلال بعض الصور الكنائية في قوله:

(وهذا كتاب الله لا تفنى عجائبه ، ولا يُطفأ نوره) ، وقد لجأ الخطيب إلى أسلوب الأمر في قوله:

(فتقوا بقوله ، وانتصحو كتابه ، واستبصروا فيه ليوم الظلمة فإنه خلقكم لعبادته ، ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون.)

أقول: لجأ الخطيب لأسلوب الأمر ، وذلك للحث على الإذعان لأوامر الله في قرآنه في قوله: (فتقوا بقوله) ، والدعوة لقبول النصيحة من القرآن في قوله: (وانتصحو كتابه).

وقد جاء الأمر في قوله: (واستبصروا فيه ليوم الظلمة) للحث على طلب الاهتداء بالقرآن يوم القيامة.

وقد أخذت الوصية منحى جديداً لدى الصديق في مجال الجهاد ؛ من نحو ما أوصى به أسامة بن زيد وجيشه^(١) ، حيث أوصاهم بعشر وصايا تم بناؤها من خلال

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٨٧.

أسلوب النهي ، كما يلاحظ أن الصديق قد بنى أسلوب الأمر في هذه الوصية من خلال أسلوب النداء ؛ حيث وقع الأمر فيها في موقع المنادى به، كما أن مطالب الأمر ومفرداته قد جاءت في سياق أسلوب النهي كما قلت؛ يقول الصديق: (يا أيها الناس: قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدورا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا تقعروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا بغيراً إلا لمأكلة).

وقد جاء أسلوب الأمر -هنا- قوياً ، فإذا عرفت أن السبب في قوة النداء في هذا الشاهد ونحوه من الشواهد التي ترد على هذا النحو ، هو وقوعه بعد النداء؛ ومرجع ذلك إلي أن (النداء يوقظ النفس ، ويلفت الذهن ، لأنه طلب ودعاء، فإذا ما جاء الأمر صادف نفساً مهياً يقظة ، فيقع منها موقع الإصابة، حيث تتلقاه بحسٍ واعٍ وذهنٍ منتبه ، وهذا دليل على عناية الأمر بأمره، ورغبته في إعداد النفوس لتلقيه)^(١).

فقد رجي الصديق من أسامة وجيشه أن يستعدوا لتلقى عشر وصايا عنه ودعاهم إلي حفظها والالتزام بها ، واتخاذها منهجاً في الحياة.

وإذا ذهبنا إلي جلاء أغراض النهي في هذه الوصايا العشر التي عرضها الصديق وجدنا أن **الجملة الأولى:**

(لا تخونوا) فيها طلب الكف على جهة الاستعلاء عن مطلق الخيانة؛ لأنها ليست من أخلاق المسلم.

وفي الجملة الثانية: (ولا تَغْلُوا) فقد جاء أسلوب النهي -هنا- ليرمي إلي النهي عن الحقد والضغينة لأنها من أمارات الخلق السيئ.

(١) محمد أبو موسى: دلالات التراكيب ، ص ٢٧٢.

وفي الجملة الثالثة: (ولا تغدورا) نهى الصديق بها عن مطلق الغدر، وكذلك في الجملة الرابعة (ولا تمثلوا) حيث نهى الصديق أسامة وجيشه عن التمثيل بالجثث حال قتلها لأن كرامة الإنسان فوق كل اعتبار ، وصيانتها من الخلق القويم.

وفي امتدادها يقول: (ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً) نجد أن أسلوب النهي فيها يرمي إلي النهي عن الإسراف في القتل ؛ إذ الطفل والشيخ الكبير لا حول لهما ، ولا خوف منهما ، إذ هما مجردان من كل بطش وقوة!!؛ كما أن النهي - هنا- يرمي إلي الكف عن الإسراف في القتل ؛ وبالتالي فإن مواجهة النفس بهما تكون أكثر تأثيراً وكفاً وزجراً.

وفي الجملة الخامسة: (ولا تقفروا نخلاً ولا تحرقوه)

نجد أسلوب النهي قد أفاد النهي عن اقتلاع النخل من أصوله وكذا حرقه، وقد أتى الخطيب بصورتين من صور الفساد في الأرض ؛ وهما من أقذع صور التخريب والتتكيل وأبغضهما إلي النفس كفا وزجراً.

وفي الجملة السادسة: (ولا تقطعوا شجرة مثمرة)

نجد الصديق ينهي قائده عن قطع كل شجرة مثمرة يأكل منها الناس، وسكت عن قطع ما دونها ؛ وذلك لإدخال الرعب في نفوس العدو !

وفي الجملة السابعة: (ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بغيراً إلا لمأكلة)

ينهي الصديق قائده عن ذبح الحيوان لمجرد الذبح ، واستثنى من ذلك ذبحه للأكل أي للنفع واستبقاء الحياة.

وقد جاءت الجمل الثلاث الأخيرة في وصية أبي بكر أمرية تنوعت فيها دلالات الأمر على النحو التالي:

ففي الجملة الثامنة من ترتيب الوصايا في قوله: (وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له).

أقول: في هذه الجملة أفاد الأمر الحث على صيانة حرمة العباد في صوامعهم، لأن احترام أهل الديانات الأخرى مما حث عليه الإسلام، إذ إنه يبرز وجه السماحة فيه.

وفي الجملة التاسعة في قول الصديق: (وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها)

وقد دلّ الأمر على الحث على التمسك بآداب الإسلام؛ ومنها ذكر اسم الله على كل طعام يؤكل!

وفي الوصية العاشرة جاء الأمر للحث والزجر عن كل هيئة لا تبرز الإنسان كائناً ما كان في الشكل الإنساني القويم، ومن ثم زجر هؤلاء الأقوام بالضرب، فقال الصديق:

(وتلقون أقواماً قد فحسوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فأخفقوهم بالسيوف خفقا).

وفي وصية الصديق لكل من عمرو بن العاص والوليد بن عقبة، نجد أن الوصية قد بنيت على أسلوب الأمر، وأن هذا الأسلوب قد جاء قوياً مؤثراً لأنه قد وقع بعده ما يحث عليه؛ فقال الصديق لكل منهما: ^(١) (اتق الله في السر والعلانية، فإنه من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتق الله يكفر له سيئاته ويعظم له أجراً، فإن تقوى الله خير ما توأصى به عباد الله).

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٨٧.

فإذا كان الأمر في مقالة الصديق السابقة مفاده الحث على التزام التقوى في ظاهر السلوك وباطنه ، فقد قوَّى من الأمر -هنا- شيئان: الأول أسلوب الطباق بين السر والعلن ، حيث ألزم الصديق قائديه أن تكون التقوى في النفس مثلاً تكون في العلن مع الناس ، وهذا أدعى أن يكون لها وجه واحد مما يزيد من أثرها في النفس والغير .

والشيء الثاني: أن أسلوب الأمر قد قوَّى بقول الصديق: (فإن من يتق الله... بقية الوصية) حيث ذكر لهما أن الخروج من أي مأزق ، والرزق بدون تخطيط أو حساب معلق على التقوى ، كما أن الله قد علق التكفير عن السيئات وتعظيم الأجر عليها أيضاً ، كما أخبر الخطيب أن التقوى هي خير ما يتوصى به عباد الله. لذا كان الحث عليها من خلال أسلوب الأمر في السر والعلن مما تقويه هذه الأمور التي ذكرها الخطيب تالية للأمر !!! حيث قامت منه مقام العلة والسبب.

وفي وصية أبي بكر لخالد بن الوليد: يستهلها بالأمر الذي أفاد الحث والسرعة في قوله: (سر على بركة الله) ثم يعطف عليه جملة شرطية غير جازمة تعلق جزاؤها بشرطها في قوله: (فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً من الحملة فإني لا آمن عليك الجولة).

حيث علق الصديق مكان خالد بن الوليد من جيشه ، بحيث يكون بعيداً ، إذا دخل أرض العدو. وقد جاء الجزاء أمراً أفاد الحث والامتنثال من أجل المصلحة العليا للمسلمين وقد وقعت بعده جملة قوَّت من أثره وأكدت على معنى الحث والامتنثال، ويلاحظ أنها دائماً ما تأتي مؤكدة بأن (وفي هذا التوكيد زيادة حث وترغيب ... لأن توكيد هذه الجملة الدافعة إلي امتثال الأمر والحاشية عليه والتي تقوم من هذا الأمر مقام السبب والعلة أدخل في بلاغة العبارة وقوة إبانيتها).^(١)

(١) محمد أبو موسى: دلالات التراكيب ، ص ٢٧٢.

والجملة التي نتحدث عنها -هنا- هي قوله: (فإني لا آمن عليك الجولة) وتتوالى شجرة الربط الإضافي من خلال حرف العطف الواو في نحو قوله (واستظهر بالزاد ، وسر بالإدلاء) حيث أفاد الأمر في الجملة الأولى الاستقواء في الجهاد بالزاد ، وفي الجملة الثانية نجده أفاد الحث طلباً للحيلة والحذر بلوغاً للهدف المرجو .

وقد عطف على هاتين الجملتين جملة نهى في قوله: (ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه) حيث أفاد النهي طلب الكف على حمل المجروح على القتال شفقة عليه ورحمة ، وقد تلتته جملة مؤكدة بأنَّ عللت لهذا النهي ، وأبانت عن المعنى المراد، ودفعت إلي الامتنال لهذا النهي ؛ إذ إن المجروح ليس كامل الجاهزية للقتال لانشغاله بالألم في بعض أعضائه مما يضعفه ويجعله عرضة للهلاك.

وقد تلا جملة النهي جملتان أمريتان صيغتا في أسلوب أمر جاء مقترنا بالتعليل في قوله: (واحترس من البيات ، فإن للعرب غرة ، وأقلل من الكلام فإن مالك ما وُعي عنك).

وقد جاء الأمر في الأولى مفيداً التحذير ، وساعد على تقويته الجملة التالية له المؤكدة لهذا التحذير ، والقائمة من هذا الأمر مقام التعليل في قوله: (فإن للعرب غرة) أي إنَّ البيات لا تؤمن عواقبه لأن العرب ليسوا أهلاً للأمان، وفي الجملة الثانية دعاه الخطيب إلي الإقلال من الكلام من خلال أسلوب الأمر الذي أفاد التحذير وعلل لوجهة قوله بقوله (فإن مالك ما وُعي عنك) أي أن ما بدر منك من حديث ليس لك إذا عرفه الناس حيث يعرضك للهلاك.

وفي قول الصديق لخالد بن الوليد: (واقبل من الناس علانيتهم) أمر أفاد الحث عن إحسان الظن بالناس ، كما أن الوصية الأخيرة حملت دعوة الخطيب لخالد

ابن الوليد إلى ترك الخوض في ضمائر جنوده إلى الله ، فهو أعلم بالسرائر في قوله: (وكلهم إلى الله في سريرتهم) ^(١).

صور من وصايا الصديق إلى أصحابه السائرين لفتح الشام:

١. وصية خالد بن سعيد بن العاص لأبي بكر رضي الله عنهما: ^(٢)

إن الملاحظ على هذه الوصية أنها مسبوقة بنداء وهذا مما يقويها ، لأن النداء - كما هو معلوم - يوقظ النفس ويلفت الذهن ، وقد مهد النداء -هنا- للوصية بكافة عناصرها.

وقد جاء المنادى به جملة مؤكدة ، حملت حثاً وترغيباً للنفوس في قوله: (إن الله أكرمنا وإياك والمسلمين طراً بهذا الدين). وعطف على جملة المنادى خمس جمل من خلال أدوات الربط الإضافي التي استهلها بالفاء التي أفادت ترتيباً وتعقيباً، ثم الواو في الجمل الأربع الباقية ؛ مما زاد من كثافة المعنى الممهد للوصية.

أمّا الوصية فقد تكونت من تسع جمل ، منها خمس جمل في صيغة الأمر وأربع في صيغة النهي. ويلاحظ أن الوصية تتكون دائماً من جماع هذين الأسلوبين مع طغيان الأمر على النهي فيها. ونذهب إلى جلاء بلاغة الأمر والنهي في تلك الوصية على النحو التالي:

١. في قول خالد بن سعيد لأبي بكر (فاتق الله يا أبا بكر فيمن ولاك الله أمره) أسلوب أمر غرضه الحث والتذكير للخليفة على التزام التقوى منهجاً في حكم المسلمين.

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٨٨.

(٢) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٩٤.

٢. وفي قوله: (وارحم الأرملة واليتيم) أسلوب أمر غرضه الإلهاب والتهيج ؛ حتى يزداد الخليفة أبوبكر تمسكا بما هو عليه من الحق بمنهج الرحمة في الحرب والحنو على الأرامل والأيتام.

٣. وكذلك الأمر في قول خالد بن سعيد ، (وأعن الضعيف المظلوم) غرضه البلاغي الحث على مناصرة الضعيف المظلوم ، والتزام الوقوف في جانبه حتى يأخذ حقه ، ومعلوم أن هذه الدعوة كانت جزءاً أصيلاً من منهج الصديق في الحكم منذ أن ألقى خطبته الأولى في الناس بعد أحداث سقيفة بني ساعدة.

٤. وانظر إلي دلالة الأمر في قول خالد بن سعيد: (وكن لناً للمحسن) حيث إن الأمر - هنا - يهدف إلي الحث والتحفيز لأهل الإحسان كي يزدادوا في إحسانهم، وهي دعوة إلي معاملة أهل الحسن برفق وحب مما يشجعهم على المضي في إحسانهم.

٥. وفي قول خالد بن سعيد: (واشدد على المريب) أمر غرضه البلاغي الحث على الزجر والتعنيف على كل مريب حتى يقلع عن ريبته ، ويستقيم سلوكه.

أما صيغ النهي الأربعة فقد جاءت على النحو التالي:

(١) أما جملة النهي الأولى في هذه الوصية فقد وردت في قول خالد بن سعيد: (ولا يكن رجل من المسلمين إذا رضيت عنه أثر عندك في الحق منه إذا سخطت عليه)

وقد جاء النهي فيها حاملاً طلب الكف عن تفضيل موقف رجل من المسلمين في الحق إذا رضي عنه الصديق عن موقف ذات الرجل إذا غضب عليه الخليفة. فالنهي -هنا- يرمي إلي النهي عن إدخال الرضا والسخط في ميزان التفضيل في

موقف الناس في الحق ، لأنه أدخل إلي الانحراف ، لأن الرضا والسخط أمور مزاجية عاطفية تختلف من موقف لآخر وبالتالي وجب النهي عنها في المسائل التي يُحْتَاج فيها إلي بيان الحق. وقد زاد من وضوح دلالة الأمر -هنا- بناء صيغته على أسلوب المقابلة بين السخط والرضا.

(٢) وفي قول خالد بن سعيد: (ولا تغضب ما قدرت على ذلك ، فإن الغضب يجرُ الجور) أفاد النهي التهويل والتفطيع من أثر الغضب على النفس، ولما كان الغضب أمرًا عاطفيًا لا يمكن التحكم فيه جاءت الدعوة إلي طلب الكف عن فعله مقرونة بالاستطاعة عليه ، ومما قوى دلالة النهي - هنا- الجملة المؤكدة التالية له في قوله: (فإن الغضب يجر الجور) حيث دفعت المخاطب إلي الامتنال للنهي والحث عليه لأن الغضب داء عضال يفضي بصاحبه إلي الظلم، وقد قامت هذه الجملة من هذا النهي مقام السبب والعلّة ، وهذا أدخل في بلاغة العبارة ودلالاتها على المعنى المطلوب.

(٣) وفي قول خالد بن سعيد: (ولا تحقد على مسلم وأنت تستطيع فإن حقدك على المسلم يجعلك له عدوًا ، وإن اطّلع على ذلك منك عاداك ، فإذا عادى الوالي الرعية ، وعادت الرعية الوالي كان ذلك قَمَمًا أن يكون إلي هلاكهم داعيًا).

نحن أمام أسلوب نهّي يهدف إلي تفطيع أثر الحقد في نفس المسلم وكذا تهويله، وقد تطلب الأمر بيان تداعيات هذه الصورة البشعة للحقد وأثرها في هدم النفس الإسلامية ، وقد جاء هذا البيان من خلال الجملة التعليلية لوجود هذا النهي بكل ما يحمله من ظلال وإيحاءات ، حيث أفادت هذه الجملة الممتدة عبر سياق الربط الإضافي أن الحقد يفضي إلي العداوة ، وقد جسد الخطيب هذه العداوة من خلال بناء الشرط الذي تعلق في النتائج بالأسباب من خلال جملتي الشرط الآتيتين:

١. (وإن اطّلع على ذلك منك عاداك)

٢. (فإذا عادي الوالي الرعية ، وعادت الرعية الوالي كان ذلك قَمْنًا أن يكون إلى هلاكهم داعيا)

حيث يلاحظ أن (إن) و (إذا) قد دخلتا على جملتين ماضيتين لفظاً ومعنى، فإذا علمنا أن هاتين الأداتين تكونان للتعليق في الاستقبال ، علمنا أن الشرط وجوابه لا يصح أن يكونا ماضيين لفظاً ومعنى ، والأمر في هذه الحالة بحاجة إلى تأويل وتخريج.

ويمكن تأويل الماضي في الشرط والاستقبال -هنا- في هذا المثال بأن الخطيب لديه رغبة من خلال صيغة الماضي الواردة هنا ، أقول: لديه رغبة في حصول الشرط حتى كأنه أبرزه في معرض الحاصل ، وكأنه لشدة هذه الرغبة تصور غير الواقع - وهو الحقد من الوالي على الرعية - واقعاً ، وذلك تبشيعاً لأثر الحقد في تدمير النفس وإفساد العلاقة بين الوالي والرعية ، وهي علاقة مفضية - لا محالة - إلى هلاكهم جميعاً.

٣. ويأتي النهي في الجملة الرابعة الأخيرة حاملة دلالة الحث والمضي في الحق مهما كانت النتائج: في قول خالد بن سعيد: (ولا تأخذك في الله لومة لائم)

وقد أفادت وصية خالد بن سعيد بن العاص لأبي بكر التأكيد على رشد، وتوعيته، وقد كان ذلك مقبولاً من الحاكم والمحكوم في جيل الرعيل الأول من المسلمين، والله غالب على أمره.

٢. وصية أبي بكر لخالد بن سعيد بن العاص: (١)

استهل الصديق وصيته لخالد بن سعيد بإخباره بأن إيصاءه له بالرشد قد وعاه خير وعي. ودعاه إلى سماع وصيته له والوعي بها.

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٩٥.

وقد جاءت وصية الصديق إلي خالد بن سعيد من خلال أسلوب الأمر فقط ،
وقد كانت صيغة الأمر على ترتيب ورودها في النص هكذا:

(تَبَّتْ ، وَعَلِّمْ ، وَعَاتَبْ ، وَاَنْصَحْ ، وَاَخْصَصْ ، وَاَعْمَلْ ، وَاَعِدْ ، وَاَعْلَمْ)

فأما الوصية الأولى ففي قوله: (تَبَّتْ العالم) وقد حمل الأمر فيها دلالة الحث على تشجيع كل ذي علم في علمه رغبة في الاتصاف بهذه الصفة ، وفي الصيغة - هنا أيضا- دلالة الإقرار بمكانة العالم.

وفي الوصية الثانية يقول الصديق: (وَعَلِّمْ الجاهل) نجد الأمر فيها قد جاء للحث على الدعوة للتعليم ، وخص بها كل جاهل حتى يصير عالماً.

وفي الوصية الثالثة التي يقول فيها الصديق: (وَعَاتَب السفيه المترف) نجد أن صيغة الأمر قد جاءت لحث السفيه الغارق في الترف للإقلاع عن هذا السلوك الذي يحط من قدره ، وقد عبر عن تلك الدعوة من خلال العتاب الذي يدل على أن زجر هذا السفيه للكف عن الإسراف في الملذات إنما يكون من باب حبه والشفقة عليه.

وقد حملت دلالة الوصية الرابعة الدعوة إلي كل فعل طيب يعود بالخير على من ينتصح به ، وقد جعل الخطيب هذه الدعوة لكل المسلمين ؛ لِضَمَانِ تحقيق الفائدة للمجتمع بكامله في قوله: (وَاَنْصَح لعامة المسلمين)

وفي الوصية الخامسة يقول الصديق: (وَاَخْصَص الوالي على الجند من نصيحتك ومشورتك ما يحق لله والمسلمين عليك).

وقد حملت دلالات الأمر في تلك الوصية دعوة الصديق لخالد بن سعيد بن العاص أن يخصص الوالي على الجند من نصحه وسداد رأيه ما يعود بالنفع على المسلمين؛ لأن ذلك حق الله عليه وكذلك حق المسلمين ، بحكم أن خالد بن سعيد من أولئك الذين لهم سابقة في الدين ، وأن مثله يستمع له الناس وينصت.

وفي الوصية السادسة في قول الصديق: (واعمل لله كأنك تراه) تخطت دلالة الأمر فيها الدعوة إلي إتقان العمل مع الله من خلال التشبيه الذي جسد إحساس العامل بصاحب العمل وهو يراقبه مما يجعله يتقن العمل حساباً لصاحبه! كما أن فيها دعوة إلي الإخلاص ، مع قصر هذا الإخلاص لله دون سواه، وذلك إمعاناً في حبه.

وفي الوصية السابعة التي يقول فيها الصديق: (واعدد نفسك في الموتى) نجد أن الأمر فيها يدل على الحث على العمل لما بعد الموت بالانشغال به، والعمل الذي يؤسس للسؤال والحساب.

وفي الوصية الثامنة الأخيرة في قول الصديق:

(واعلم أنا عما قليل ميتون ، ثم مبعوثون ، ثم مسألون ، ومحاسبون)

أفاد الأمر الحث على الإقرار بالحاضر الغائب وهو الموت ، والعمل له لأنه يعقبه بعد مدة وتراخٍ بعث ثم بعد مدة وتراخ لا يعلمها إلا الله سؤال وحساب ، وهذا أدعى للتنبيه على هذا الأمر الجلل.

وفي وصية أبي بكر لعمر بن العاص حين أرسله على رأس جيش إلي الشام كثير من بلاغة النص وفقه دلالات التراكيب^(١).

أولاً: بدأ الصديق الوصية بالنداء ، وقد قال أهل البلاغة: إنَّ مما يقوي أسلوب الأمر وقوعه بعد النداء ، لأن النداء - كما قلنا سابقاً - يوقظ النفس ، ويلفت الذهن لأنه طلب ودعاء.

فقال الصديق لعمر بن العاص:

(يا عمرو: اتق الله في سر أمرك وعلايته)

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٩٥.

وأنت تلاحظ أن الأمر -هنا- فيه حث وإرشاد إلي اتقاء الله في شئون النفس ما ظهر منها وما بطن ، وقد لعب الطباق بين السر والعلن -هنا- دوراً في إضفاء معنى الشمول في طلب التقوى في أمر هذا القائد في كافة أحواله.

وقد عطف الموصي (أبو بكر) أمراً على أمر من خلال أداة الربط الإضافي الواو التي ربطت بين طلب الحياء على جهة الاستعلاء وطلب التقوى أيضاً، ولعل مما يربط الحياء بالتقوى أن الحياء مفضٍ إلي التقوى لا محالة.

وقد قال أبو بكر هنا: (وَأَسْتَحْيِه فَإِنَّهُ يَرَاكَ وَيَرَى عَمَلَكَ)

ونلاحظ أن جملة (فإنه يراك ...) المعطوفة على جملة الأمر عطف ترتيب وتعقيب ، وقد حثت على هذا الأمر وهو طلب الحياء وترغيب المأمور بالوصية فيه، إذ الموصي عندما قال: استحيه ، جاء بما يحث على عليه فقال: (فإنه يراك ويرى عملك) ، ومن ثم جاءت هذه الجملة لتؤدي دور العلة والسبب في طلب الدعوة إلي الحياء من الله لأنه يطلع عليك وعلى عملك ؛ أي يراقبك.

وقد لاحظنا أن قول الصديق لعمر بن العاص:

(وقد رأيت تقديمي إياك على من هو أقدم سابقة منك ، ومن كان أعظم غناءً عن الإسلام وأهله منك)

أقول: جاء هذا القول المتضمن في هاتين الجملتين المتعاطفتين بمثابة الترشيح والتسبيب لشجرة الأمر في سبع جمل متلاحقة ، اعترضتها جملة نهى بعد ثلاث جمل أمرية ، بما يعني أن الأمر في مجمله يدعو الموصى إلى الالتزام بقيمة هذا الترشيح في قيادة أحد جيوش فتح الشام.

ومن ثم جاء الأمر في الجملة الأولى للحث والتوجيه في قوله: (فكن من عمال الآخرة) ، وجاء الأمر في الجملة الثانية للدعوة إلي الإخلاص لله في قوله (وأرد

بما تعمل وجه الله) ، كما أن فيها تحذيراً من الرياء لأنه يمثل عقبة في أن يكون عمل المرء خالصاً لوجه الله !

وفي الجملة الثانية ترى الأمر فيها للحث على الشفقة والرحمة والحنان في قوله: (وكن والداً لمن معك)

ثم تأتي جملة النهي في قول الصديق:

(ولا تكشف الناس عن أستارهم)

وقد تمثلت دلالة النهي فيها في الدعوة إلى إحسان الظن بالناس وعدم التفتيش في نواياهم ، إذ لا طاقة - لنا - بهذا الأمر لأنه معلق على الظن وبعض الظن إثم ، لذا جاء الأمر المعطوف على هذا النهي يحثنا على الاكتفاء بما نلاحظ من ظاهر سلوك الناس في العلن واتخاذهم مناطاً للحكم عليهم فقط؛ فقال: **(واكتف بعلانيتهم)** وقد جاءت دلالة الأمر في قول الصديق لعمر بن العاص:

(وكن مجداً في أمرك) للحث على الجدة والنشاط في الأمر لأنها من متطلبات القيادة.

وفي قول الصديق له أيضاً: (واصدق اللقاء إذا لقيت)

جاءت دلالة الأمر معلقة الصديق في لقاء الأعداء على لقائهم في المستقبل ، كما حملت هذه الدلالة الدعوة إلى الثبات والشجاعة والجلد عند اللقاء ، لأن القائد قدوة لجنوده في مثل هذه المواقف.

وقد حملت دلالة النشاط - هنا - معنى التخصيص والتعليل ؛ وذلك لأدعى إلى تقوية الأمر من خلال الدفع إليه ، مما يقوّي من بيان الدلالة.

وقد جاء ختام الوصية مركزاً على معنيين مهمين من خلال دلالة النهي؛ الأول في قول الصديق لعمر: **(ولا تجبن)** حيث حمل النهي دلالة التحذير من مغبة

الجبن في مواقف القتال ، كما أن في النهي -هنا- تركيزاً لعمره بأثر الجبن في انهيار النفس وضعفها ، وقد عطف على هذه الدلالة لصيغة النهي جملة شرطية جاء الجزء فيها في صيغة الأمر ، كما تعلق الشرط الماضي لفظاً ومعنى ، حيث دعا الصديق قائده إلى الإيجاز عند الوعظ لجنوده ، ولا ضير فالبلاغة هي الإيجاز ، ولما كانت الأداة إذا تفيد شرطاً مقطوعاً بوقوعه في المستقبل ، كأنه يقول له: إذا وعظت ولابد أنك ستعظ أصحابك ؛ عند ذلك أوجز، فالدعوة إلى إيجاز القول في الوعظ بها نهى عن الإطالة التي هي مجلبة للضجر والملل.

وقد ختم العظة لعمره بجملة جاء فيها المضارع مجزوماً في جواب الطلب، حاملاً بذلك هو والأمر السابق عليه دلالة الشرط ، وإن كان الشرط في مثل هذه الصيغ مقدراً حسب أقوال النحاة.

فقال له: (وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك)

حيث علق الخطيب صلاح رعية عمرو بن العاص على إصلاحه لنفسه، ومن ثم فإن دلالة الأمر فيها حث على العناية بإصلاح النفس لارتباط هذا الإصلاح بجلب النفع للقائد من خلال انصلاح رعيته له ، وهكذا فأنت ترى أن في الفعل المضارع (تصلح) المجزوم في جواب الطلب دلالة الجزء المعلق على معنى الشرط القار في دلالة الأمر في قوله (أصلح).

أبو بكر يوصي يزيد بن أبي سفيان:^(١)

لقد جاءت وصية الصديق ليزيد بن أبي سفيان حين وَجَّهَهُ لفتح الشام ضرباً من الوصايا الحربية التي تكشف عن فكر أبي بكر الحربي في توجيه قواده التوجيه الأمثل الذي يتحقق به النجاح والنصر.

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٩٧.

وقد استهل الصديق وصيته بإخبار يزيد بن أبي سفيان بالأسباب التي دفعت الصديق لتوليته ؛ فقال له:

(إني قد وَلَّيْتُكَ لِأَبْلُوكِ وَأُجْرِبُكَ وَأُخْرِجُكَ)

وبالتالي فقد أفصح الموصي هنا لقائده عن أسباب هذا الاختيار ؛ وهي: التجربة، والاختبار ، والتدريب ، وقد جاءت الصياغة مفضية إلي هذه المعاني من خلال بنية الفعل المضارع: أَبْلُوكِ وَأُجْرِبُكَ وَأُخْرِجُكَ.

ثم عطف على هذه الجملة الإخبارية جملة شرطية جازمة ارتبطت فيها دلالة الأداة بالإشارة إلي شرط غير متوقع حدوثه في المستقبل ، فقال:

(فإن أحسنت رددتك إلي عملك وزدتك)

وقد ارتبطت دلالة المعنى بين الجملتين المعطوفة - التي معنا الآن - (فإن أحسنت ...) والمعطوف عليها في قوله: (إني قد ولّيتك ... الجملة) من خلال أداة الربط الإضافي الفاء التي أفادت الترتيب والتعقيب ؛ حيث رتبت على التولية التي هدفت إلي تجريب هذا القائد واختباره وتعليمه ، أقول: رتبت على ذلك رده إلي عمله وزيادة رتبته فيه.

وقد جاء المعنى المضمن في جملة الشرط المصدرة بأن الشرطية، أقول: جاء المعنى غير مقطوع بوقوعه ، حيث إن إحسان هذا القائد في تلك الولاية غير مقطوع به ، لأن الإحسان من الأمور النادرة التي إن وقعت تعطي تقرّداً لصاحبها بين أقرانه.

وقد عطف على هذه الجملة جملة شرطية أخرى صدرها بالأداة (إن) أيضا التي أفادت شرطا غير مقطوع بوقوعه وكأن الصديق -هنا- باستعمال (إن) يرفض أن يسيئ إلى يزيد بن أبي سفيان ، فيتربط علي هذا السلوك عزله من منصبه !

إن التعبير بالفعل الماضي في هذا النمط من الأسلوب يشير إلي رغبة الموصي في حصول هذا الشرط حتى كأنه أبرزه في معرض الحاصل بهذه الصيغة

ليشير إلي أن هذه الإساءة التي وقعت من يزيد ما كان ينبغي له أن يفعلها إلا على سبيل الشك والاحتمال النادر فإن وقعت هذه الإساءة منه فجزاؤه العزل !!

وفي قول الصديق ليزيد بن أبي سفيان:

(فعليك بتقوى الله ، فإنه يرى من باطنك مثل الذي يرى من ظاهرك)

أقول: في هذا القول معنى الأمر ، والتقدير: الزم تقوى الله ، وتكون بذلك دلالة الأمر دافعة له نحو الحث محرضة عليه ، ومما قوى هذا المعنى الجملة المعطوفة عليه في قوله:

(فإنه يرى الجملة) حيث دعت هذه الجملة المؤكدة إلي امتثال الأمر من خلال الحث عليه ، كما أنها عللت للدعوة إلي الالتزام بتقوى الله من كون أن الله يرى من باطن الإنسان مثل الذي يرى من ظاهره.

وقد لعب أسلوب التضاد بين رؤية الباطن ورؤية الظاهر دوراً في إنتاج الدلالة الدافعة إلي ضرورة التزام التقوى منهجاً في التقرب إلي الله.

وقد أفادت (مثل) المساواة بين الرؤيتين الظاهرة والباطنة ، مما يعني بلاغة الجملة التالية لهذا الأمر وقوة إبانيتها لمدلوله.

وإذا انتقلنا إلي أسلوب التحذير الذي ألقاه الصديق على يزيد بن أبي سفيان، نجده - أولاً - قد جاء بعد إعلانه له بأنه قد ولاء عمل خالد بن سعيد بن العاص.

ثانياً: أسلوب التحذير يحمل في معناه دلالة الأمر في قوله: (فإياك وعبيّة الجاهلية ، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها).

إن تقدير المعنى في الأسلوب السابق هو: (أحذرك عبيّة الجاهلية ...)

ومن ثم فإن دلالة التحذير -هنا- تعني النصح والإرشاد ، وهو -هنا- يحذره من التخلق بالكبر والفخر ؛ إذ هما من أخلاق الجاهلية ، وقد جاءت الجملة الحاثّة على الأمر الداعية إليه مؤكدة بأنّ ، وأنت تلاحظ أن في هذا التوكيد زيادة حث وترغيب في الإقلاع عن هذا النمط من الخلق السيئ لأن الله لا يحبه ولا يحب أهله ، ومن لا يحبه الله لا ينصره ، ولما كان قائداً لجيش المسلمين وكان النصر مطلباً أصيلاً لقيادته لجيش الفتح كان لابد من تحذيره من الوقوع في هذه المثلبة !

دلالة التركيب الشرطي في الوصية على الأمر (تركيب إذا الشرطية):

وقع تركيب (إذا) الشرطية في وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان أربع مرات، وقد حمل في كل مرة ورد فيها دلالة جديدة في المعنى.

أما التركيب الأول ففي قول الصديق:

(١) (إِذَا قَدِمْتَ عَلَى جَنْدِكَ فَأَحْسِنْ صَحْبَتَهُمْ ، وَابْدَأْهُمْ بِالْخَيْرِ ، وَعِدْهُمْ إِيَّاهُ).

حيث نلاحظ أن جواب الشرط جاء في صيغة الأمر الذي يحث فيه الصديق قائده على إحسان صحبته لجنوده ، وقد امتدت جملة الجواب - هنا- من خلال العطف ؛ حيث عُطِفَتْ عليها جملتان:

الأولى يدعو فيها الصديق قائده إلى أن يبادر جنوده بفعل الخير معهم، والثانية حملت دلالة الأمر فيها معنى التحفيز من خلال وعده لهم لكل فعل يسرهم ويفرحهم.

وقد تعلقّت دلالات الأمر في الجواب على وقوع الشرط المقطوع بوقوعه، وهو زيارة القائد لجنوده ، كأنها وشيكة الوقوع على كلّ حال.

(٢) وفي جملة الشرط الثانية نجد أن جواب الشرط فيها قد جاء - أيضا- في صيغة الأمر ، لكنه هذه المرة أمر معلل ومسبب ؛ حيث يقول الصديق:

(وَإِذَا وَعَظْتَهُمْ فَأَوْجِزْ ، فَإِنْ كَثُرَ الْكَلَامُ يُنْسَى بَعْضُهُ بَعْضًا)

فالجملة تفصح عن مطالبة الصديق قائده يزيد بن أبي سفيان أن يكون كلامه موجزًا إذا تحدث مع جنوده في مجال العظة والعبرة.

ولما كان الوعظ حديثًا قد يطول فيه نفس المتحدث ، وتتفرع به المسالك، نبه الموصي قائده إلى أهمية الإيجاز مع جنوده في هذا الشأن من خلال جملة مؤكدة وهي قوله:

(فَإِنْ الْكَلَامُ يُنْسَى بَعْضُهُ بَعْضًا)

وقد عبرت هذه الجملة عن حقيقة مكررة مؤكدة من كون أن الكلام ينسى بعضه بعضا. وقد قامت تلك الجملة بوظيفة الحث والدعوة إلى الامتنال للأمر في قوله: (فأوجز) ، ومن ثم فقد قامت من الأمر مقام العلة والسبب ، مما جعل الأمر - هنا- أدخل في البلاغة وقوة البيان.

(٣) وفي الجملة الشرطية - ب (إذا) - الثالثة يقول الصديق:

(وَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ رُسُلُ عَدُوِّكَ فَأَكْرِمِهِمْ وَأَقْلَلْ لُبَّهُمْ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ عَسْكَرِكَ وَهُمْ جَاهِلُونَ بِهِ).

ففي هذا التركيب يؤكد الصديق على معنى مقطوع بوقوعه وهو زيارة رسل العدو لأهداف تتصل بالحرب بين الجانبين ، ومن ثم فهو يدعو قائده ويحثه على إكرامهم ، إذ إن الإكرام -هنا- من أصول التعامل بين المتحاربين.

وقد طالت جملة الجواب للتعبير عن الاهتمام برسل العدو ، لأن أمرهم خطير، لذا جاء عطف الأمر الثاني مترتباً على المعنى الذي أفصح عنه الأمر الأول

وهو الكرم ، حيث يدعو الصديق قائده ويحثه على عدم إطالة مدة مكث رسل العدو بين جنوده ، وقد قامت جملة:

(حتى يخرجوا من عسكريك وهم جاهلون به)

أقول: قامت تلك الجملة بدور التعليل والتبرير لضرورة أن تكون مدة بقاء رسل العدو قليلة.

ولعل طول الجملة - مهما كان موقعها من الكلام - لابد أن يكون له ما يبرره، وإلا كان هذا الطول سبباً في ترهل المعنى وفساده.

ومما يتصل بإيحاء الصديق يزيد بن أبي سفيان برسل العدو من خلال تركيب الشرط هذا في شق جوابه أن عطف جملة نهى لها صلة دلالية بتقليل مكثهم في عسكر هذا القائد ، وهذه الجملة هي:

(ولا تريثهم فَيَرَوْا خَلَّكَ ، ويعلموا عِلْمَكَ)

فقد أفاد النهي -هنا- طلب الكف عن الإبطاء في إطالة بقاء رسل العدو في جيش يزيد ، وعطف على الجزاء علة أخرى وهي معرفتهم بعورات جيشك مثلك، فتستبان لهم مقاتلك !

وقد قلنا: إن النهي معلق على علة (هي الجزاء) ، كما أن الجملة الفعلية المصدرة بالفاء (فيروا ...) أكدت مضمون جملة النهي التي أفادت الحث والنصح أيضاً.

وتوالت جمل الأمر التي أظهرت عناية الصديق بنصح قائده فيما يخص رسل عدوهم من نحو أن ينزلهم في جمهور عسكريه حتى لا يمكنهم من الاطلاع على أسرار عسكريه ؛ حيث يقول: **(وأنزلهم في ثروة عسكريك)**. وهذا أمر آخر يتصل بموضوع رسل العدو في قوله: **(وامنع من قبلك من محادثتهم)** وقد أفاد هذا الأمر الحيلة والحذر.

كما أفاد الأمر في قول الصديق ليزيد: (وكن أنت المتوليّ لكلامهم) تخصيص أمر العناية بمحادثة رسل العدو في شخص القائد ، حيث يرمي هذا الأمر إلي أن القائد هو الأدرى بما يريد أن يقوله لهم من أمور تتصل بحربه مع عدوه فيما يخص صالح جنده.

٤) وأما الجملة الرابعة ففي قول الصديق:

(وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصدق المشورة ، ولا تَخْزَن عن المشير خبرك، فتؤتي من قبل نفسك).

وبالنظر في هذه الجملة نلاحظ أن جواب الشرط قد طال من خلال بنية العطف التي وصلت دلالة المعطوف بالمعطوف عليه ، فالنهي عن حبس كل خبر صحيح عن المشير ، يؤدي بطبيعة الحال إلي هلاك النفس من قبل صاحبها لأنه لم يكن صريحا في إخبار المشير بأمر نفسه ، وقد أفاد النهي المعلن -هنا- وضوح صيغة جواب الشرط وبلاغتها في الإبانة عن المعنى المتصل بطلب المشورة ، لأن من يطلب المشورة يطلب الصدق ، ومن ثم تعلق صدق الحديث وصراحته ووضوحه بصدق المشورة.

ومن الملاحظ أن جواب الشرط في هذا التركيب قد جاء حاملاً معنى الشرط أيضاً من خلال جزم جواب الأمر فيه في جواب الطلب ، وتأمل معي قوله:

(فاصدق الحديث تُصدق المشورة)

أقول: تأمل معي هذا التركيب لتجد أن جواب الطلب في قوله: (تُصدق المشورة) قد علق على صدق الحديث تعليق شرط بجوابه ، وقد أدى ذلك الأمر إلي زيادة قيمة الأمر من خلال هذا التركيب الذي حمل معنى التعليل والتأكيد.

وتلك نصيحة أخرى تتصل بجمع الأخبار حول الجيش ، قد شكلها الصديق من خلال صيغة الأمر في قوله:

(واسمُر بالليل في أصحابك تأتِكَ الأخبار ، وتنكشف عندك الأستار)

حيث أفاد الأمر - هنا - الدعوة إلى السهر ليلاً في الصحبة لإزالة الوحشة مما يهيئ الجو أمام القائد لمعرفة الأخبار دون طلبها ، وهذا أدعى دون شك أن تكون صحيحة ومفيدة ، كما أن التعبير بقوله: **(تأتِكَ الأخبار وتنكشف عندك الأستار)** تعبير بياني ؛ حيث صور الأخبار بزائر عزيز يأتي فيستقبل، وهي صورة توحى بتدفق الأخبار دون عناء ، كما أن الصورة الكنائية في قوله: **(تنكشف عندك الأستار)** تفيد الصراحة والوضوح دون جهد أو عناء.

آداب الحراسة وجملة الأمر

ومما يتصل بآداب الحراسة في الجيوش تلك النصائح التي صاغها الصديق لقائده في صيغ الأمر أو جملة الشرط التي تم بناؤها على السبب والعلة طلباً للإقناع في قوله:

١. **(وأكثر حرسك وبددْهم في عسكرك)** حيث جاء هذا التركيب مصاغاً في بنية الأمر الذي يرمي إلى الحث على الإكثار من جنود الحراسة طلباً للأمان والسلامة ، مع طلب أن يكونوا منتشرين في ربوع الجيش ، وقد تحددت دلالة الأمر في مطلبي الكثرة والانتشار.

٢. وقد عطف الصديق على هذا الأمر أمراً آخر في قوله:

(وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم)

وقد أفاد الأمر - هنا - الحث على مداومة التفتيش على الحراسات طلباً للحذر والحيلة واليقظة ، وهي أمور تهم الجيوش وتأمينها.

٣. أمّا الجملة الشرطية في قوله:

(فمن وجدته غفل عن مَحْرَسِهِ فأحسن أدبَهُ وعاقبَهُ في غير إفراط)

فقد تعلق جزاؤها بشرطها ؛ فإحسان أدب الحرّاس ومعاقتهم في غير إسراف مرتبط بغفلتهم عن محارسهم ، وقد دلّ قول الصديق: (فأحسن أدبه) على إعادة تأهيل كل حارس يغفل عن محرسه ، ثم عطف على هذا الإحسان العقاب الميسر غير المنفر .

٤. وفي الجملة الرابعة المتصلة بآداب الحراسة تأتي جملة الأمر لتدل على التنبيه تحقيقاً للعدالة في توزيع نوبات الحراسة من حيث طلب أن تكون الفترة الأولى فيها أطول من الأخيرة ، وقد أكد هذا الطلب بجملة مؤكدة تحت عليه وتفسره وتوضحه في قوله: (فإنها أيسرهما لقرّيبها من النهار) حيث فسرت هذه الجملة السبب الداعي لطول فترة الحراسة الأولى لكونها أقل في المشقة لقرّيبها من النهار!

٥. وفي الجملة الخامسة المتصلة بآداب الحراسة في الجيوش تأتي صيغة النهي لتعبر عن الكف عن إقصاء القائد الخوف عن نفسه حال عقوبته كل مستحق للعقوبة جرّاء تقصيره في محرسه.

في قوله: (ولا تخف من عقوبة المستحق)

وقد عطف عليها جملة متصلة بها في قوله: (ولا تلجّن فيها) حيث أفاد النهي فيها التحذير من التردد في تقرير العقوبة ، لأن ذلك فيه ضياع لسلطان القائد على جنوده ، مما يؤثر على النتائج المرجوة من جيشه ! كما عطف على هذه الجملة جملتين تتصل دلالتهما بمسألة الدعوة إلي عدم الخوف من توقيع العقوبة على المستحق لها من جنده المقصّرين في محارسهم.

أمّا الجملة الأولى ففي قوله: (ولا تسرع إليها) فقد أفاد النهي -هنا- توقي الحذر في إقرار العقوبة ، والدعوة إلي أن يكون أمر البتّ فيها بعد تريث.

أما الجملة الثانية ففي قوله: (ولا تَخْذْ لها مُدَقِّعًا) نجد أن دلالة النهي فيها -كما ترى- تدل على عدم الاسترخاء والضعف في تنفيذ العقوبة على كل مستحق لها.

٦. وتأتي الجملة السادسة في أدب الحراسة في فكر الصديق داعية إلى الحرص وعدم الغفلة عن العناية بشئون العسكر لأن ذلك مَظَنَّةٌ لهلاكهم وهلاك قائدهم، وقد حمل أسلوب النهي دلالة الشرط ومعناها حينما علق فساد العسكر على غفلة القائد فقال:

(ولا تَغْفَلْ عن أهل عسكرك فتفسده)

ويختتم الصديق وصيته ليزيد بن أبي سفيان بأمر دلالاته التحذير والحيطة من الوقوع في الخيانة ، وعلل لأمره بجملة مؤكدة حث من خلالها على تجنب الغلول لأنه يقرب صاحبه من الفقر ، ويمنع عنه النصر فقال: (واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر)

وصية الصديق لشرحبيل بن حسنة:^(١)

استهل الصديق وصيته لشرحبيل بن حسنة بجملة ندائية ، وهي مما يناسب صيغتها؛ إذ الغالب على بنية الوصية أن تصاغ في أسلوب أمر أو أسلوب نهى ، أو شرط فيه جوابٌ صيغ من خلال أمر أو نهى.

وقد أفاد افتتاح الوصية -هنا- بالنداء إيقاظ النفس ولفت الذهن ؛ لأن النداء طلب ودعاء ، فإذا ما تلاه الأمر أو النهي وجد النفس مهياً فيقع منها موقع الإصابة ، إذ تتلقاه النفس بكامل وعيها ويقظة حسها.

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ١٩٩.

إن هذا ما نجده في نداء الصديق لشرحبيل بن حسنة حيث قال له: (يا شرحبيل: ألم تسمع وصيتي ليزيد بن أبي سفيان ؟ قال: بلى ، قال: فإنني أوصيك بمثلها، وأوصيك بخصال أغفلت ذكرهن ليزيد.) لقد جاءت الجملة الندائية استفهامية، ومعلوم أن للاستفهام موقعاً في النفس لا يخفى على كل لبيب.

قال عبدالقاهر في الدلائل في تفسير الاستفهام الدال على الإنكار:

(وأعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار ، فإن الذي هو محض المعنى: أنه لتنبيه السامع حتى يرجع إلي نفسه فيخجل ويرتدع ويعي الجواب، وإما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه ، فإذا ثبت على دعواه قيل له: "فافعل" ، فيفضحه ذلك ، وإما لأنه همَّ بأن يفعل ما لا يستصوب فعله، فإذا رجع فيه تنبه وعرف الخطأ.

وإما لأنه جوّز وجود أمرٍ لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه قُبِحَ على نفسه وقيل له: "فأرنا في موضع وفي حالٍ ، وأقم شاهداً على أنه كان في وقت" ^(١)

ومفاد كلام عبدالقاهر أن الاستفهام عند التحقيق لا يراد به (إلا محض التنبيه أعني الإيقاظ وإثارة حركة الفكر والحس ، فَيَلْتَقُ بهذا الحضور الواعي إلي السياق، فيستوعبه بخفاياه ودقائق همسه ، وكل حواشيه فيلنقط المراد ... الاستفهام هنا يهيئ النفس لتتلقى من السياق ما يجيش به من خواطر ومشاعر وصور هي التي جاشت في نفس متلقيه) ^(٢).

(١) دلائل الإعجاز: ص ١١٩-١٢٠.

(٢) محمد أبو موسى: دلالات التراكيب ، ص ٢٥٩.

ونعود إلي استقهام أبي بكر حين ألقاه على مسمع شرحبيل بن حسنة لنجده قد رمى من إلقائه إلي تنبيه شرحبيل إلي مضمون وصيته ليزيد ، وطلب قبولها وإقرارها.

وقد جاء جواب شرحبيل بالإيجاب ، ومن ثم كان أمر الصديق له طالباً منه العمل بها في قوله: (فإني أوصيك بها ، وأوصيك بخصال أغفلت ذكرهن ليزيد)

وقد جاء مضمون الوصية من خلال شجرة الربط الإضافي بحرف العطف الواو ، ومفاد الأمر على امتداد جملة الأمر هو الحث والإرشاد.

فقال: (أوصيك بالصلاة في وقتها ، وبالصبر يوم البأس حتى تظفر أو تقتل، وبعيادة المرضى ، وبحضور الجنائز ، وذكر الله كثيراً على كل حال).

وقد ارتبطت الوصية بالصبر يوم الحرب بجملة تعليلية ؛ وهي قوله: (حتى تظفر أو تقتل).

وصية الصديق لأبي عبيدة بن الجراح:^(١)

بني الصديق وصيته لأبي عبيدة على النداء ، حيث وقع الأمر بعده مما أعان على إيقاظ النفس وتنبيه الذهن.

فقال: (يا أبا عبيدة: اعمل صالحاً ، وعش مجاهداً ، وتوف شهيداً يُعطيك الله كتابك بيمينك ، ولتقر عينك في دنياك وآخرتك.)

فقد صيغ الأمر في هذه الوصية بطريقة مخصوصة من خلال الربط بين ثلاثة أوامر ؛ جاء بناؤها النحوي متوازياً هكذا:

١. اعمل صالحاً

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ٢٠٠.

٢. وعش مجاهداً

٣. وتوفَّ شهيداً

كما أن الأمر في هذه الجمل فيه حث على الاتصاف بالعمل الصالح في الجملة الأولى ، والعيش في جهاد مستمر ، وطلب الشهادة ؛ إذ الموت من خلال الشهادة موت يجب أن يطلبه أبوعبيدة ، وأن يحرص عليه لأنه موت فيه الكرامة والحياة الرفيعة والقبول.

إن عطف الجمل الثلاث جاء متسقاً دلاليّاً ؛ إذ العمل الصالح يفضي إلى العيش في جهاد ، والعيش في جهاد مطلب لدى أبي عبيدة يُبلّغه درجة الشهادة ، فالعطف -هنا- عطف تعليل وتسبيب.

وقد جزم الفعل المضارع في جواب الطلب حاملاً في طيه معنى الجزاء، كما حمل كل فعل من الأفعال الثلاثة السابقة عليه معنى الشرط ، حيث يترتب على العمل في صلاح والعيش في جهاد وطلب الاستشهاد أن يعطي الله من تلك أفعاله كتابه بيمينه جزاءً وفاقاً.

وقد عطف المُوصي على جملة (يعطي) جملة (ولتقرَّ عينك ...) ليكرس معنى الجزاء المترتب على دلالة هذه الأفعال الثلاثة ، وفي قوله: (ولتقرَّ عينك) صورة كنائية توحى بالسرور والسعادة في الدنيا والآخرة.

وفي قول الصديق: (فوالله إنني لأرجو أن تكون من التوابين الأوابين المخبئين ، الزاهدين في الدنيا ، الراغبين في الآخرة).

نجد أنفسنا أمام جملة خبرية ارتكزت على التوكيد القسمي ، الذي يبرز قيمة هذه الوصية من الصديق لأبي عبيدة بن الجراح حينما يعمل بها ، إذ ترتقي به إلى أرفع درجات الصلاح ليكون من عباد الله التوابين الأوابين الخاشعين. ثم أضاف إلي

هذه الصفات الجميلة صفتين لا تقلان عنهما روعة وجمالاً وهما: الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ، حيث تفضي الصفة الأولى بصاحبها إلي الصفة الثانية.

ولما كانت تلك الأمانة من أبي بكر من الأخبار التي قد ينكرها منكر سيقّت في أسلوب قسم يعلن به الصديق الجواب على سؤال سائل أنكر مضمون هذا الخبر! ويأتي الأمر في وصية الصديق لأبي عبيدة للدلالة على الحث على قتال المشركين، ومما قوى هذه الدلالة ورشح لها الخبر المؤكد الذي سبق هذا الأمر، من كون أن أبا عبيدة على رأس جيش المسلمين الذي كلفه به الصديق لحرب المشركين. يقول الصديق:

(إن الله قد صنع بك خيراً وساقه إليك ، إذ جعلك تسير في جيش من المسلمين إلي عدوه من المشركين ، فقاتل من كفر بالله وأشرك به ، وعبد معه غيره).

وفي قول الصديق: (إن الله قد صنع بك خيراً وساقه إليك) صورة بيانية تجسد هذا الخير وتبرزه للعيان في صورة غنيمة تساق وتحس وترى ، وهي صورة تعمق الإحساس بقيمة النعمة ، وتقوى أثرها المعنوي في تحقيق النصر.

وصية الصديق لهاشم بن عتبة:^(١)

قد رأينا إلى الآن أن الوصية تبدأ في الغالب الأعم بالنداء ، وهذه وصية الصديق لهاشم بن عتبة يستهلها بالنداء أيضاً قائلاً له:

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ٢٠١.

(يا هاشم: إنا إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره، وكنا ننتفع من الشباب بصبره وبأسه ونجدته ، وإن الله - عز وجل - قد جمع لك تلك الخصال كلها ، وأنت حديث السن مستقبل الخير.)

لقد رشحت الجملة الندائية مضمون الوصية التي يريد الصديق أن يوصي بها هاشم بن عتبة ، حيث أكد الصديق لهاشم أنه قد جمع بين خبرة الكبار وصبر وبأس ونجدة الشباب مع تميزه بصغر السن !!

ومن ثم عطف على الجملة الندائية الممتدة جملة شرطية بأداة الربط الفاء التي ربطت مضمون جملة الشرط بمضمون جملة النداء.

يقول الصديق: (فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر ، واعلم أنك لا تخطو خطوة، ولا تنفق نفقة ، ولا يصيبك ظمأ ، ولا نصب ولا مخصمة في سبيل الله إلا كتب الله لك به عملاً صالحاً).

وقد جاء جواب الشرط في صيغة الأمر الذي ارتكزت عليه الوصية؛ حيث أفاد هذا الأمر الحث على الانتفاع بتلك المقومات التي رشحت هاشم بن عتبة لقيادة جيش المسلمين ، كما علق الثبات والجلد في المعركة حال لقاء العدو مستقبلاً، كما عطف على هذا التركيب تركيباً آمرياً آخر في قوله:

(واعلم أنك ...)

وقد أفاد هذا الأمر الحث على التخلق باليقين بالله من كون أن الخطو أو النفقة أو النصب أو الجوع إذا كان في سبيل الله كان جزاؤه العمل الصالح.

ويلاحظ أن هذا الأمر قد ارتبط بالاستثناء ؛ حيث علق كتابة الأعمال التي ذكرتها لك بأخرة في سجل الأعمال الصالحة إذا كانت خالصة لله وفي سبيله، وذلك احتراز من أن هناك من الأعمال أعمالاً لا تسجل في سجل الأعمال الصالحة لأنها

ليست في سبيل الله. وهذا يذكرنا بعظة الصديق لكل الناس حينما قال: (إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أُريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم).

وقد ذيل الصديق وصيته بشاهد قرآني يؤكد به المعاني التي شملتها تراكيب النص وهو قول الحق: (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) ، مع ملاحظة أن هذا التذييل جاء في ختام جملة جواب الشرط الداعية إلي الصبر .

وبالرجوع إلي موضوع مجيء هذه الآية في القرآن نجد أنها وردت مقرونة بالصبر في سورتي هود ويوسف:

أما في سورة هود فقد وردت في الآية ١٤٥ في قول الحق:

(وإصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)

وفي سورة يوسف الآية ٩٥ في قول الحق:

(إنه من يتق وَيَصْبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)

وبالتالي فإننا نفهم من الموضعين أن قول الحق: (فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) جاء بما هو مشتمل على الاستقامة ، وإقامة الصلوات ، والانتهاز من الطغيان ، والركون إلي الظالمين ، والصبر ، وغير ذلك من الحسنات كما يقول الزمخشري في الكشاف^(١)

وصية أبي بكر لعمر رضي الله عنهما عند موته:^(٢)

(١) الكشاف: ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

(٢) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ٢٠٥ .

استهل الصديق وصيته لعمر - رضي الله عنهما - بخبر أكد فيه استخلافه من بعده فقال: **(إني مستخلفك من بعدي)** وقد دلت صياغة الخبر على القطع بمضمونه من كونه مضموناً لا لبث فيه ، إذ إن أمر الاستخلاف صادر من أبي بكر مباشرة وهو في مرض الموت ، وقد عطف الصديق على جملة هذا الخبر جملة سجل بها وصيته له ؛ حيث أوصاه بالتقوى لله فقال له: **(إني مستخلفك من بعدي ، وموصيك بتقوى الله).**

لقد ارتكزت وصية الصديق إلي عمر - رضي الله عنهما - على أسلوب التضاد عبر فضائها من المفتتح وحتى الختام.

وقد ارتكزت قيمة التضاد في هذه الوصية على إثارته للمشاعر الإنسانية الفياضة لدى الصديق تجاه عمر رضي الله عنهما.

وقد اعتمدت صور التضاد في هذه الوصية على طاقة المخزون المعنوي في الكلمات التي شكلت الجمل المتوازية ، والتي شكلت بدورها صيغ هذا التضاد ، كما اعتمدت أيضاً على أداة النفي: (لا) التي نفت زمن الفعل المضارع ، وخلصت دلالاته إلي المستقبل ، وذلك بعد أن نفت دلالاته في الزمن الحاضر.

يقول الصديق موصياً عمر رضي الله عنهما:

(إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل).

فقد ظهرت القيمة الفنية للتضاد في قول الصديق السابق من خلال التوازي التركيبي بين الجملتين المنسوختين.

١. إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار

٢. وإن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل

حيث جاء خبر إنَّ متقدماً على اسمها في الجملة الأولى ، ثم غاب عن الحضور في الجملة الثانية ، معتمداً في هذا الغياب على الإشارة إلي حضوره في الجملة الأولى ، كما جاء اسم إن موصوفاً بجملة شكلت حركة التضاد بين الجملتين في قوله: (عملاً بالليل لا يقبله بالنهار)

وقوله: (عملاً بالنهار لا يقبله بالليل)

أقول: جاء مقيداً من خلال شبه الجملة في قوله: (بالليل) وقوله: (بالنهار) حيث أفاد شبه الجملة التخصيص والتقابل في التعبير، ومن ثم الوضوح في الدلالة، حيث نفى أن يكون عمل الليل مساوياً لعمل النهار.

كما أن جملة (لا يقبله بالنهار) وكذا جملة (لا يقبله بالليل) قد خلصت زمن المضارع في كل منهما من الزمن الحاضر إلي المستقبل ، وأبانت أنَّ عمل الليل لا يقبله الله بالنهار ، والعكس صحيح مع عمل النهار. وقد أفاد تنكير كلمة (عمل) في الجملتين التعميم والتعمية سعياً لاجتهاد العبد في التميز بين الأعمال التي يتوجب عليه عملها بالليل ، والأخرى التي يسعى لعملها بالنهار.

وفي قول الصديق: (وإنه لا تُقْبَلُ نافلةٌ حتى تُؤدِّي فريضة)

وجدنا أمام أسلوب نفي ، تم فيه نفي زمن الفعل (تقبلُ) في الحاضر والمستقبل ، ثم علق هذا النفي علي أداء الفريضة قبل أداء النافلة لأنها الأصل، ومن ثم قامت جملة (حتى تُؤدِّي الفريضة) مقام التعليل من الجملة السابقة عليها.

وقد اتكأت وصية الصديق إلي عمر - رضي الله عنهما - على أسلوب القصر والاختصاص (إنما) ، والتي وردت في تركيبين ؛ بيانها كالتالي:

أولاً: في قول الصديق: (فإنَّما تُقَلَّتْ موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم).

حيث أفادت (إنما) في النص السابق القصر والاختصاص ، حين أدخلت ثقل موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة في حكم الظاهر المعلوم الذي لا ينكر ولا يدفع ولا يخفي.

حيث أثبتت (إنما) ثقل موازين فريق من الناس يوم القيامة وأعطت - لنا - العلة المسببة لهذا الإثبات ؛ وهي:

(اتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم)

ونفت ما سواهم لغياب العلة المثبتة لثقل ميزانهم يوم القيامة.

ثانياً: في قول الصديق: (وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم).

حيث أفادت (إنما) في هذا التركيب القصر والاختصاص ، حين أدخلت خفة موازين من خفت موازينهم يوم القيامة في حكم الظاهر المعلوم الذي لا ينكر، حيث أثبتت (إنما) خفة موازين فريق من الناس يوم القيامة ، وبيّنت علة هذه الخفة في قول الصديق: (باتباعهم الباطل وخفته عليهم) ونفت ما سواهم لانقضاء العلة الموجبة لخفة موازينهم.

وهكذا يتضح - لنا - من خلال هذين الشاهدين من وصية الصديق لعمر - رضي الله عنهما - أنّ (موضوع "إنما" على أن تجئ لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته ، أو لما يُنزل هذه المنزلة ... والقصد بالخبر بعدها أن تُعلم السامع أمراً قد غلط فيه بالحقيقة واحتاج إلي معرفته).^(١)

أسلوب الاستثناء ب: لا ... إلّا ، ودلالته على الاختصاص:

(١) دلائل الإعجاز: ص ٣٣٠ ، و ٣٥١.

ورد هذا الأسلوب في وصية الصديق لعمر - رضي الله عنهما - في موضعين، وتحددت فائدته في التخصيص.

أما الموضوع الأول ففي قول الصديق:

(وَحَقٌّ لِمِيزَانٍ لَا يَوْضَعُ فِيهِ إِلَّا الْحَقُّ أَنْ يَكُونَ ثَقِيلًا)

حيث أثبت الصديق لكل ميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقیلاً ، ونفى ثقل هذا الميزان بوضع ما دون الحق فيه ؛ رعاية لقيمة الحق ، وإبرازاً لخصوصيته وإعلاءً له على الباطل ، وقد خصص الميزان وقيدته بالجملة المنسوخة التي وقعت صفة له في قوله: (أن يكون ثقیلاً).

أما الموضوع الثاني في قول الصديق:

(وَحَقٌّ لِمِيزَانٍ لَا يَوْضَعُ فِيهِ إِلَّا الْبَاطِلُ أَنْ يَكُونَ خَفِيفًا).

فقد أفاد الاستثناء في هذه الجملة الاختصاص ؛ حيث خص الباطل من بين الأشياء التي توضع في الميزان ، وجعله سبباً في خفة هذا الميزان دون غيره، وقد خصص الميزان وقيدته بالجملة المنسوخة (أن يكون خفيفاً) التي جاءت وصفاً له ، مما أعان علي إبراز قيمة الاختصاص وحصره في الباطل الذي يجعل كل ميزانٍ خفيفاً.

ومن عظات الصديق التي أوصى بها عمر - رضي الله عنهما - عظة تتعلق بدعوة الصديق عمر الحذر في طلب الجنة من خلال التركيب الشرطي الذي جاء مصاغاً في إطار بنية التضاد التي تتكئ على مناوشة الأشياء لإبراز وجهي الحياة من خلال مختلف الوسائل اللغوية التي يبنى بها التركيب.

حيث وازى بين تركيب الشرط الذي جاء معلناً عن ضرورة مداومة العمل على طلب الجنة ، وتركيب الشرط الذي جاء معلناً عن التحذير من الوقوع في العمل المفضي إلي النار.

وقد سبق كل تركيب تقديم يرشح لمضمونه الذي علق فيه جزاؤه على شرطه، وجاء تركيب الشرط مصدرًا في الجملتين بـ: (إذا) التي دخلت على الفعل الماضي لفظاً ومعنى لزيادة الترغيب في طلب الجنة والترهيب من دخول النار.

فقال: ١. إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت: إني أخاف ألا أكون من هؤلاء.

٢. وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء.

وانظر إلي مناوشة الشعور الإنساني عن طريق الإبانة الخاطفة عن وجهي الحياة ممثلين في الرحمة بما توحى به من شوق وحنان وسعادة ، والعذاب بما يوحى به من بؤس وشقاء وتعاسة في قول الصديق: (وذكر آية الرحمة مع آية العذاب) ثم ذيل هذه الجملة بجملة تعليلية أفصح بها عن الجمع بين الضدين في أسلوب الوعظ والوصية فقال:

(ليكون العبد راغباً راهباً)

وقد عطف الصديق على الجملة السابقة جملتين برابط الواو التي أشركت هاتين الجملتين بالجملة المعطوف عليها بصلة الضمير الغائب ، حيث تعلقت الجملة الأولى بالترغيب ، والثانية بالترهيب في قوله: (ولا يتمنى على الله غير الحق ، ولا يُلقى بيده إلى التهلكة)

حيث لوحظ أن الفعل المضارع في الجملتين قد تم نفيه بـ (لا) التي تنقل دلالة المضارع من الحال إلى الاستقبال كما يذكر ابن هشام.^(١)

(١) مغني اللبيب عن صناعة الأعاريب، ج ١/ ص ٢٤٤ ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٩١م.

حيث دلت صيغة النفي في قوله: (ولا يتمنى على الله غير الحق) نفي التمني في الحال ونقله إلي الاستقبال حيث لا يكون تمنى الحق على الله إلا عن رغبة مستمرة لا تنقطع ، وفي قوله: (ولا يُلقى بيده إلى التهلكة) نفي لدلالة الإلقاء في الحاضر الممتد إلي زمن المستقبل لمن تتلبثه الرهبة والخوف من الله، حيث يظل على حذر من أن يقع في الهلاك المفضي إلي دخوله النار.

ويختتم الصديق وصيته لعمر بجملتين شرطيتين جاءتا في إطار التوازي التركيبي غير المتطابق تمامًا لعدة بلاغية تستفاد من قرينة السياق ؛ حيث يقول:

١. فإذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك.

٢. وإن ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز

الله.

يلاحظ على هاتين الجملتين ما يلي:

أولاً: أن بين معنى الجملتين تضادًا يظهر فحوى الوصية في أمرين لا يلتقيان أبدًا ، وهما يتمثلان في كون أن الإنسان متى ما أقبل على الآخرة كان الموت هو الشئ الغائب المحبب إليه المعبر عنه بجملة الحال التي أبانت هيئة الإنسان الذي عمل والتزم بمنهج الله.

وأن نفس هذا الإنسان - وهو يقصد - هنا- في المثاليين عمر بن الخطاب- إذا ضيع الوصية ولم يعمل بها ، فإنه لن يظهر حبه للموت ، وإنما سيظهر كرهه له، لكنه الكره الذي يظهر عجزه كإنسان لا يملك من أمر نفسه شيئاً، وأنه بتمرده على منهج الله لن يعجز الله ؛ إذ لا طاقة له بغضبه سبحانه عليه ساعة أن يغضب متى شاء.

ثانياً: وفق الصديق في صياغة خلاصة وصيته لعمر - رضي الله عنهما- في إدخاله لـ: (إذا) مع الفعل حفظ ، و(إن) الشرطية الشكية مع الفعل (ضيّع).

حيث إن قوله: (إذا حفظت وصيتي...) يفيد أن حث الصديق عمر على حفظ وصيته أمر مقطوع به.

أما قوله: (إن ضيعت وصيتي) فيفيد أن ضياع وصية الصديق لدى عمر -رضي الله عنهما- أمر مستبعد نادر غير مقطوع به.

ثالثاً: جاءت جملة الجواب في جملتي الشرط جملة نفي ، وقد جاء دلالة النفي ملازمة لصيغة شرطها في دلالتها على المعني ؛ حيث خلصت المضارع المجزوم في جواب الشرط للاستقبال ؛ بمعنى أنه إذا حفظ الفاروق وصية الصديق فإن الغائب المحبب إلي نفسه ليس شيئاً سوى الموت تخصيصاً وقصراً، وإنه في حال ضياع الوصية -أيضاً- نفى الصديق أن يكون أبغض الأمور الغائبة عن عمر شيئاً غير الموت ، وهذا في الواقع أمر مستبعد على عمر؛ لأنه لو حدث فلن يعجز الله عن عقابه ، لذا جاءت جملة النفي المعقبة للجزاء مبرزة لتفاهة بغض عمر للموت لو حدث ذلك منه.

بلاغة حديث الصديق لعبدالرحمن بن عوف ، ودلالة فقه التركيب فيه:

إن القراءة المتأنية لنص الحوار الذي دار بين عبدالرحمن بن عوف وأبي بكر الصديق في مرض موته تكشف الكثير من ملابسات الواقع وخفاياه؛ وإذا ما ذهبنا إلي قراءة نص الحوار قراءة نصية ، فإننا سوف نلاحظ الآتي:^(١)

أولاً: استهل عبدالرحمن بن عوف الحوار بجملة يُسرِّي بها عن أبي بكر، حيث طمأنه على علته ورآه بارئاً منها ، وجاءت جملة الافتتاح فعلية فعلها ماض حيث قال:

(أراك بارئاً يا خليفة رسول الله ﷺ)

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ٢٠٦.

وأظن ظناً أن لجوء عبدالرحمن بن عوف إلى التعبير بالجملة الفعلية مرده رغبته في تصوير حالة الصديق وطمأنته ، والتصوير يميل إلى الحركة ويأنف من الثبات ؛ لذلك فأنت تراه قد لجأ إلى التعبير بالفعل (أراك) الذي عبر عن حدث الرؤية المدققة ، وقد جعل في طي هذه الجملة جملة ندائية تدل أيضاً على الدعاء والطلب.

ويأتي رد الصديق بجملة وردت فيها الإشارة إلى علته من خلال اسم الإشارة للبعيد (ذلك) للتعبير عن قيمة بلاغية يريد بها في قوله: (أما إني على ذلك لشديد الوجع). وأنت تراه قد أشار إلى مسألة براءته التي أخبره بها عبدالرحمن بن عوف باسم الإشارة للبعيد (ذلك) للتنبيه على استبعاد ما يخبره به عبدالرحمن بن عوف من أمر براءته ، وأنه أمر مستبعد الحدوث ، لذلك جاء المسند وهو قوله (لشديد الوجع) جديراً باكتساب هذا التعريف ، أو أن تعريف المسند إليه في قول أبي بكر (ذلك) بالإشارة أفاد أنه جدير باتصافه بما ذكر بعده كما يقول الخطيب القزويني^(١).

وفي قول الصديق لعبدالرحمن بن عوف أيضاً:

(وَلَمَّا لَقِيتَ مِنْكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ وَجْعِي)

نجد أنفسنا أمام تركيب نصي يجسد حزن الصديق لرد فعل المهاجرين غير المتوقع لتوليته عمر - رضي الله عنهما - خلافة المسلمين من بعده ، حيث جعل هذا الأمر أشد على نفسه في الأثر من ألم المرض الذي يعاني منه ، وفي هذا التعبير تصوير لأمر غير متوقع حدوثه من صحابة الصديق ، لذلك جعله أشد من الإحساس بالوجع الذي هو في الأصل مما لا يحتمله إنسان؛ تجسيداً لخيبة أمله في أصحابه في أمر تلك المسألة.

(١) الإيضاح: ص ٧٢

وقد أعان (أفعل) التفضيل في هذا التركيب على إبراز مراد الصديق من تلك المفاضلة بين أمرين ؛ أحدهما محسوس وهو وجع علقته التي مات بها، والثاني معنوي وهو الأثر المترتب على اختياره لعمر - رضي الله عنه - خليفة للمسلمين.

وقد فسر التركيب السابق من خلال استئنافه للمعنى بجملتين جعل الثانية منهما معقبة للأولى معللة لها ؛ فقال:

(إني وَلَيْتُ أموركم عليكم خيركم في نفسي ، فكلكم وِرِمَ أَنْفُهُ أَنْ يكون له الأمر من دونه)

وقد بنى الصديق تركيبه المشار إليه على التصوير الكنائي الذي جسد الموقف خير تجسيد إذ في قوله:

(إني وَلَيْتُ أموركم عليكم خيركم في نفسي) كناية عن موصوف هو عمر ابن الخطاب ؛ حيث أبرزت الصورة الكنائية أن مناط اختيار الصديق لعمر - رضي الله عنه - هو الخيرية التي فاق بها عمر - رضي الله عنه - مَنْ هو أهل للترشيح معه أو مَنْ ينافسه في هذا الأمر.

وفي قوله: (فكلكم وِرِمَ أَنْفُهُ أَنْ يكون له الأمر من دونه) صورة الكنائية أيضا عن صفة الامتناع والاعتراض والضجر ، وقد رشح للصورة بقوله: (أَنْ يكون له الأمر من دونه).

ويسهم الربط النحوي من خلال الربط الإضافي بالواو في تماسك المعنى في نص الحوار بين الصديق وعبدالرحمن بن عوف ، وذلك من خلال عطفه جملتين جاءتا في صيغة القسم ، وذلك بهدف توكيد مضمونهما الذي استشرف به الصديق مستقبل الأمة من بعده من خلال بنائه لجواب القسم في صيغة المضارع المؤكد بالنون في الجملتين في قوله:

(لَتَتَّخِذُنَّ) وقوله: (وَلَتَأْلُمُنَّ) ؛ حيث تم ربط جملتي جواب القسم بجملة القسم (والله) باللام في أول هاتين الجملتين ؛ حيث إنه لما كانت جملة جواب القسم فعلية موجبة لزم أن تأتي اللام في أول هذه الجملة كما ترى ، كذلك تم تأكيد الفعل المضارع فيها لأن الشائع أن يرد مؤكداً بالنون ، ومنه قول الحق:

(وَتَاللَّهِ لَا أَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ)^(١)

يقول الصديق: (والله لَتَتَّخِذُنَّ نَضَائِدَ الدِّيَابِجِ وَسُتُورَ الْحَرِيرِ ، وَلَتَأْلُمَنَّ النُّومَ عَلَى الصُّوفِ الْأَزْدِيِّ كَمَا يَأْلَمُ أَحَدُكُمْ النُّومَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ).

وقد حفلت مقالة الصديق السابقة - أيضاً- بالتصوير البياني المجسد للموقف، ففي قول الصديق:

(والله لَتَتَّخِذُنَّ نَضَائِدَ الدِّيَابِجِ وَسُتُورَ الْحَرِيرِ)

صورة كنائية تجسد حياة الراحة والرفه والنعيم.

وفي قوله: (وَلَتَأْلُمَنَّ النُّومَ عَلَى الصُّوفِ الْأَزْدِيِّ)

صورة كنائية أيضاً تعبر عن حياة الشظف والخشونة التي ستصبح غير مناسبة للمسلمين بعد زمن الصديق ، حيث إنها مُجْلِبَةٌ للألم وعدم الراحة ، وقد شبه ما يحدثه النوم على قُرُشِ الصوف الأزدي بنوم إنسان على شوك حسك السعدان علي سبيل التمثيل ؛ فالصورة هنا صورة تشبيهية تمثيلية ، تجسد شهوة الإقبال على الدنيا برغائبها ومغرياتها.

(١) الأنبياء: الآية ٥٧.

راجع شرح المفضل لابن يعيش: ٩٦/٩ وما بعدها.

وقد عطف الصديق على أسلوب القسم الذي خلفناه بآخرة أسلوب قسم آخر حمل دلالة تمثل العاقبة لما انطوى عليه المعنى في الأسلوب الأول ، فقال:

(والذي نفسي بيده ، لأنْ يُقَدَّمَ أحدكم فتضرب عنقه في غير حدٍ خيرٌ له من أن يخوض غمرات الدنيا).

حيث جاءت جملة جواب القسم جملة اسمية مكونة من المصدر المئول من أنْ + الفعل المضارع (يُقَدَّمَ) ، والتقدير: لتقديم أحدكم لضرب عنقه في غير حد... إلخ وقد دخلت على جملة الجواب لام الابتداء التي أعطت معنى التوكيد ، كما أن دلالة المعنى في جملة الجواب جاءت مجسدة لرؤية الصديق التي جعلت موت الإنسان دون حدٍ أي ذنب أفضل له من أن تلتهمه الدنيا بشهواتها ومغرياتنا فتقتله وهو حي ، فيخسر كلَّ شئ !!

وتأتي في نهاية الحوار جملة النداء لتقدم لنا حديثاً هامساً من الصديق حين تراه ينادي ربه معلناً أنه انحرف عن الطريق فظلم نفسه ؛ فقال: (يا هادي الطريق جُرْتُ).

وقد أفاد أسلوب النداء -هنا- الضراعة والالتماس ، حيث رسم النداء إحساساً طاغياً في النفس الإنسانية التي تلح في طلب الهداية بعد ما ذاقت مرارة الانحراف عن الصواب ، ويستوقفنا ختام الحوار بين الصديق وعبدالرحمن بن عوف في قوله: (إنما هو - والله - الفجرُ أو البُجرُ).

فهذا أسلوب قصر واختصاص ؛ حيث أراد الصديق أن يخبرنا أن الطريق إما أن يكون واضحاً مضيئاً وإما أن يكون مظلماً.

وكلنا يعلم هذا الأمر ويقرّ به ، إلا أن الصديق يريد أن ينبهنا إلى غمرات الدنيا التي تحير أهلها بهذا المثل: (الفجرُ أو البُجرُ) أي أنك إذا انتظرت حتى يضيئ

لك الفجر الطريق أبصرت قصدك ، وإن خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك
على المكروه !

وقد أفادت (أو) في هذا التركيب معنى التخيير ، مما يدل على أن الطريق
إلى الشر ليس مطلقا ولا الخير كذلك ، وإنما مناط الاختيار في يد الإنسان !

القسم الثالث

تجليات الخطاب في نثر عمر رضي الله عنه

المبحث الأول
بلاغة النص وتجليات الخطاب في
خطب الخلافة عند عمر رضي الله عنه

مما لا شك فيه أن نثر عمر بن الخطاب يطرح العديد من القضايا التي تثير جدلاً على مستوى فهم المعنى المراد من ناحية ، وما تكشف عنه دلالات التركيب النصية لديه عن المرامي البلاغية العميقة من ناحية أخرى.

ونذهب إلي تحليل نُصوص هذا النثر محاولين الكشف عن العلاقة بين المعنى والتركيب:

من خطب عمر حين استخلف خطبة موجزة استهلها بصورة تشبيهية جسد من خلالها موقفه من الخلافة ، فقال:

(إنما مثل العرب مثل جمل أنفٍ اتبع قائده فليُنظر قائده حيث يقوده، وأما أنا فوَرِب الكعبة لأحملنهم على الطريق)^(١).

إن نص الخطبة -هنا- مكون من جملتين: الأولى جملة قصر واختصاص، والثانية جملة قسم.

أما الجملة الأولى فهي الجملة التي جاءت فيها الصورة التشبيهية التمثيلية المجسدة لموقف العرب من خلافة ابن الخطاب ، وتصدرتها (إنما)، وإذا عرفنا أن موضوع إنما على أن تجئ لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أقول: إذا عرفنا

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ٢١١.

دلالة (إنما) -هنا- أدركنا أن الخطيب قد رمى من وراء صوغه الأسلوب إلى التنبيه إلى الصورة التي عليها حال العرب في الانقياد لقائدها الجديد.

وقد جسد التشبيه التمثيلي حال العرب في الانقياد لعمر بن الخطاب -رضي الله عنه - بحال البعير الذي اشتكى وجعا في أنفه أرغمه على الانقياد لصاحبه ، فهو ذلول منقاد.

ووجه الشبه - هنا- هو الهيئة الحاصلة من أثر الوجع في استسلام الموجوع لمن يقوده طواعية.

وقد استدعى الخطيب الحديث النبوي ليشكل منه هذه الصورة التشبيهية التمثيلية ، ولعل هذا يعطي الصورة قوة في التأثير ؛ إذ يقول الحديث الشريف (المؤمن كالجمال الأنف إن قيد انقاد ، وإن استئخ على صخرة استناخ).

حيث يجسد هذا الحديث أثر الإيمان في نفس المؤمن على رضوخه وانقياده لأوامر الله وأنه مثل الجمل الذي اشتكى أنفه من البرة فهو أنفٌ أي موجوع في أنفه مما يسهل انقياده وذلوله لصاحبه ، ولا يخفى ما بين طرفي الصورة من تناسبٍ مرَّده تشابه طاعة المؤمن لله، وطاعة الجمل الأنف لصاحبه!

وفي قول الخطيب: (اتبع قائده) وصف قيد الجمل وحصر تبعيته في صاحبه فقط ، فهو يسير حيث يسير ، وجاء الربط بين هذه الجملة التي شكلت قيِّداً وصفيّاً لهذا الجمل ، وجملة (فليُنظر قائده حيث يقوده) حيث جزم المضارع في هذه الجملة بعد لام الطلب ، وقد دلت لام الطلب - هنا- على الأمر الذي أفاد الحث والتنبيه لكل قائد كي يحدد الطريق التي يسلكها مع من يقوده ! ودلالة الأمر -هنا- تقضي إلى طلب الدقة وتوخي الحذر في القيادة لبلوغ الأهداف المرجوة.

أقول: جاء الربط - هنا- من خلال حرف العطف الفاء الذي أفاد الترتيب والتعقيب، حيث إن اتباع الجمل لقائده يترتب عليه اقتضاء النظر في الطريق الذي يقوده إليه ، لأن القيادة مسئولية القائد وحده.

ولننظر في شأن الجملة الثانية في النص ، وهي قول عمر رضي الله عنه:-

(وَأَمَّا أَنَا فَوَرَبِ الْكَعْبَةِ لِأَحْمَلَنَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ)

وسوف نجد أنفسنا أمام أسلوب قسم لجأ إليه عمر ليؤكد موقفه من قيادة العرب ، حيث يقسم "برب الكعبة" ليشعرنا بصدق موقفه ؛ فليس بعد الحلف بالله تأكيد، وليس بعد حرمة بيته الحرام حرمة ، وقد جاءت جملة جواب القسم جملة فعلية موجبة مما لزم معها دخول لام التوكيد عليها مع دخول نون التوكيد الثقيلة على الفعل (أحمل) ليعبر الخطيب بهذه المؤكدات على إصراره قيادة العرب إلي الطريق الصحيح.

وفي واحدة من خطب عمر -رضي الله عنه-(^١) بعد ولايته الخلافة نجدنا أمام أمرين جديرين بالتأمل: أَمَّا الْمَوْقِفُ الْأَوَّلُ فخاص بأثر القرآن في التعريف بالمسلم الحق ، وإعطاء قيمة خاصة للمنتمي إليه باعتباره عنوان الدين الإسلامي. وقد جاءت الصياغة النصية لهذا الموقف من خلال أسلوب الأمر البلاغي في قوله:

(اقْرَءُوا الْقُرْآنَ تُعْرِفُوا بِهِ ، وَاَعْمَلُوا بِهِ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ).

ففي النص السابق نحن أمام جملتين أمريتين جُزم فيهما المضارع في جواب الطلب الأمرى ، حيث الفعل المضارع في الجملة الأولى (تعرفوا) مجزوم بعد الطلب

(^١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ٢١١.

الأمرى (أقرعوا) ، وكذلك الفعل (تكونوا) مجزوم بعد الطلب الأمرى (اعملوا) ، وقد جزم المضارع فى الجملتين على أساس أنه جواب شرط محذوف تقديره على النحو التالى:

١. فى الجملة الأولى: إن تقرعوا القرآن تعرفوا به.

٢. وفى الجملة الثانية: إن تعملوا به تكونوا من أهله.

هذا من الناحية النحوية. أما من حيث دلالة التركيب فإن معنى الشرط فى هاتين الجملتين قد علق الفعل المجزوم فى جواب الشرط فيها على إرادة المعنى فى الفعل الأمر الذى حمل معنى الطلب ، حيث:

أ- تم تعليق معنى المعرفة بالقرآن على قراءته تعليق جزاء على شرطه. بالإضافة إلى ما يدل عليه الأمر فى قوله: (أقرعوا) من معنى الحث والتنبية.

ب- تم تعليق معنى الانتساب إلى أهل القرآن على العمل بمعانيه مما يكون له بالغ الأثر على سلوك المسلم. وقد جاء هذا التعليق أيضاً حاملاً دلالة تعليق الجزاء على الشرط فى الجملة الشرطية ، وهذا أدعى للتحفيز لأنه علق الانتساب إلى أهل القرآن على العمل به. وجاءت دلالة الفعل الأمر فى تلك الجملة فى جانبها البلاغى داعمة لمعنى الجزاء المعلق بشرطه ؛ حيث دلت أيضاً على الحث والتوجيه.

ولعل فى صوغ عمر - رضى الله عنه - المعنى على هذا النحو المشروط ما يؤكد على منهجه فى الحكم الذى اتكأ على ربط الأفعال بأسبابها وتقييم النتائج فى ضوء تلك الأسباب.

ونأتى إلى مسألة الربط بين الجملتين بأداة الربط (الواو) التى ربطت بين الجملتين فى المعنى وتعلق الضمير فى المعطوف بالمعطوف عليه فى قوله فى الجملة المعطوفة: (واعملوا به تكونوا من أهله) حيث يرجع هذا الضمير إلى القرآن فى الجملة الأولى:-

(اقرأ القرآن تعرفوا به)

فالعطف بين الجملتين - هنا- عطف أفاد الإشراف في الحكم الإعرابي والمعنى الدلالي بين الجملتين ؛ من حيث إن معنى الشرط في المعطوف عليه يعني أننا لن نكون من أهل القرآن إلا إذا عملنا به ، ولن نتحقق تلك الأهلية المتعلقة على العمل بالقرآن إلا إذا عرفنا بين الناس بأننا من أهل القرآن ، ولن نكون من أهل القرآن إلا بمداومة قراءته.

أما الموقف الثاني: فيمثله المزج بين الصورة البيانية وأسلوب الشرط، وبالنظر إلى تلك الصورة فإننا نجدها تجسد موقف الحاكم من المال العام للأمة والذي نعت به (مال الله) ؛ حيث شبه موقفه من هذا المال بوالي اليتيم ؛ من خلال خبر طلبي تقدمته أداة الحث والتوبيخ (آلآ) ، ولما كانت ولاية اليتيم ملبسة من كون أنه ليس كل والٍ على يتييم مؤتمن في ولايته على مال هذا اليتيم، أقول: لما كان هذا هو حال والي اليتيم ، استعان الخطيب بأسلوب الشرط ليفسر - لنا- به صورته في الولاية على مال الله بحكم كونه الخليفة ، تلك الصورة التي أشبهت صورة المتولي أمور اليتيم ، حيث كان هذا الوالي على مال اليتيم يأكله ولو كان غنياً ، لذا جاء نهى القرآن عن أكل مال اليتيم إذا كان والي اليتيم غنياً؛ فقال: (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ)^(١)

وحقيقة المعنى في الآية كما يقول الزمخشري:

(وتضموها إليها في الإنفاق ، حتى تفرقوا بين أموالكم وأموالهم قلة مبالاة بما لا يحل لكم ، وتسوية بينه وبين الحلال. فإن قلت: قد حرم عليهم أكل مال اليتامى وحده مع أموالهم ، فلم ورد النهي عن أكله معها ؟ قلت: لأنهم إذا كانوا مستغنيين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مالٍ حلال - وهم على ذلك يطمعون فيها - كان

(١) سورة النساء: الآية ٢.

القبح أبلغ والذم أحق ، ولأنهم كانوا يفعلون ذلك فعنى عليهم فعلهم وَسَمَعَ بهم ليكون أجزر لهم^(١)

ونذهب إلى تحليل ما تؤديه الجملة الشرطية من الاحتراز في تفسير مراد عمر - رضي الله عنه - من كونه أنزل نفسه من مال الله بمنزلة والي اليتيم حيث يقول عمر:

(أَلَا وَإِنِّي أَنْزَلْتُ نَفْسِي مِنْ مَالِ اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ وَالِي الْيَتِيمِ ، إِنْ اسْتَغْنَيْتَ عَفَفْتُ ، وَإِنْ افْتَقَرْتُ أَكَلْتُ بِالْمَعْرُوفِ).

ففي قول عمر - رضي الله عنه -: (إِنْ اسْتَغْنَيْتَ عَفَفْتُ) نجد إِنْ دخلت على الفعل الماضي ، وذلك ينافي كون أَنْ (إِنْ) للشرط في الاستقبال ، ولا بد أن يكون ثمة تأويل يفسر دخولها على الماضي هنا ؛ وهو أنه إذا كان معنى (إِنْ) أنها تفيد الشرط غير المقطوع بوقوعه ، وأنها - هنا - في سياق كلام عمر - رضي الله عنه - الذي يخبر به عن نفسه كحاكم إِنْ استغنى مستقبلاً وأصبح ذا مال عَفَّ نفسه عن مال الله ، ولما كان أمر الاستغناء أمراً نسبياً بين الناس ، أخرج عمر الاستغناء مستقبلاً في معرض الحاصل بصيغة الماضي رغبة منه في حصوله ؛ إذ بحصوله يأمن الحاكم على نفسه أكل مال الله. ومن ثم يترفع ويعف بهذا الاستغناء الحاصل ، ولك أن تلاحظ دخول السين والتاء على الفعل: (غَنَى) حيث أفاد هذان الحرفان طلب الغنى طلباً للعفة والحماية.

وانظر إلى قوله المعطوف على القول السابق:

(وَإِنْ افْتَقَرْتُ أَكَلْتُ بِالْمَعْرُوفِ)

(١) الكشف: ج ١ / ص ٤٦٨ - ٤٦٩.

أولاً: التعبير بالفعل (افتقر) يدل على أن حدوث الافتقار يكون فجأة وليس على مهل وإنذار ، مما يعطي أحقية في مد اليد لطلب الأكل الذي جاء مترتباً على حدوث هذا الافتقار . وقد جاء الجزء في هذا الشرط متلبساً بفاعله ومكتفياً بمتعلقه (بالمعروف) الذي أبان عن طبيعة هذا الأكل ، تلك الطبيعة التي جعلها الخطيب محل العناية ؛ بدليل أنه استغنى عن المفعول فحذف على الرغم من أن الفعل متعدٍ إلي المفعول ، لكنه جعل الفعل يتلبس بفاعله للأهمية والرعاية التي أشرت إليها .

والأصل: أكلت مال الله بالمعروف ، فاستغنى الخطيب عن ذكره بإخفائه إذ (قد عُلِمَ أنه ليس للفعل الذي ذكرت مفعولٌ سواه ، بدليل الحال أو ما سبق من الكلام، إلا أنك تطرّحُه وتتناساه وتدّعه يلزم ضمير النفس لغرض غير الذي مضى؛ وذلك الغرض أن تتوفّر العناية على إثبات الفعل للفاعل وتخلّص له وتُنصّرِفَ بجملتها (كما هي إليه).^(١)

لقد رسم عمر - رضي الله عنه - صورة لوالي اليتيم ؛ وهي تتمثل في رعاية هذا الوالي لمال اليتيم وعدم المساس به إذا أصبح الوالي غنيا وليس بحاجة إلي مال اليتيم ، أي ترفع عن هذا المال صيانة لنفسه. وإذا كان القرآن الكريم قد خصص علاقة والي اليتيم بمال هذا اليتيم بالأكل ، فإن عمر - أيضا- نقل هذا التخصيص إلي العلاقة بين مال الله (مال الأمة) والحاكم من خلال الأكل أيضا. والسؤال: لماذا هذا التخصيص بالأكل ، دون الادخار أو بالتباس ، أو ببذله في لذة نكاح أو غير ذلك !

والجواب إن حكمة تخصيص النهي عن مال اليتيم بالأكل ، وكذلك مال الله لأنه في حكم مال اليتيم (أن العرب كانت تتضمم بالإكثار من الأكل ، وتعدُّ البطنة من

(١) دلائل الإعجاز: ص ١٥٦.

البهيمة ، وتعيب على من اتخذها ديدنه ، ولا كذلك سائر الملائ ، فإنهم ربما يتفاخرون بالإكثار من النكاح ويعدونه من زينة الدنيا ، فلما كان الأكل عندهم من أقبح الملائ خُصَّ النهي به ؛ حتى إذ نفرت النفس منه بمقتضى طبعها المألوف جرّها ذلك إلى النفور من صرف مال اليتيم في سائر الملائ أو غيرها ، أكلاً أو غيره^(١)

لقد علق عمر أكله بالمعروف من مال الله على افتقاره إن حدث ، وعبر عن احتمال هذا الحدث بـ (إن) الشرطية التي تدخل على الممكن لا على المحقق ؛ فقال:

(وإن افتقرت أكلت بالمعروف)

وقد أفاض الأليزي في شرحه على بردة البوصيري في بيان أنّ إن الشرطية تدخل على الممكن لا على المحقق ؛ فقال:

((إن الشرطية تدخل على الممكن لا على المحقق ، فلهذا يصح أن يقال: آتيك إذا جنَّ الليل ولا يصح إن جنَّ الليل ، وقد تقول: آتيك إذا دخل النهار لأن دخول النهار محقق ، وإذا تدخل على المحقق الوقوع))

وتأمل قول حبيب في ممدوحه حيث قال:

إذا فَرَشَوْهُ النِّصْفَ مَاتَتْ شَذَاتُهُ وَإِنْ رَتَعُوا فِي ظُلْمِهِ كَانَ أَظْلَمًا

فجاء في صدر البيت بإذا ، وبيان في العجز إشعاراً بأنَّ خوف العدو من ممدوحه ، ورغبته من الممدوح في الصلح والسلم شئ محقق ، فجاء فيه بإذا، أي إذا سألوا منه النصف وطلب السلم ، وانقادوا ، ورغبوا منه في الإبقاء عليهم سكن عنهم ونامت شذاته ، وهذا هو المحقق المقطوع به منه لجرائته وكثرة خوفهم منه؛ فلهذا قال:

(١) الكشف: ج ١ / ص ٤٦٥ حاشية رقم ٣.

إذا فرشوه النصف ، لأن طلبهم ذلك منه محقق ، ثم قال: وإن رتَعُوا في ظلمه كان أظْلَمًا ؛ أي إن سعوا في ظلمه كان أظلمًا ، أي إن سعوا في ظلمه وحره وعداوته علامهم وقهرهم وكان أظلم منهم ، إلا أن هذا منهم في حيز الإمكان، ولا ببعيد ، لأنهم أدلاء له ، خائفون من سطوته.

فجاء (بإِنْ) التي تقتضي الإمكان لا التحقيق ، فالبيت يدل على شجاعة ممدوحه وسطوته بأعدائه ، ويدل على استحذار عدوه له وخوفه من جرائته والتماس العفو منه^(١)

وختم عمر - رضي الله عنه - خطبته الموجزة بصورة بيانية يصور من خلالها طريقته في الأكل من مال الله الذي هو بمنزلة مال اليتيم ؛ وذلك كما قال: بالمعروف، حيث قال:

(تَقَرَّمُ الْبَهْمَةُ الْأَعْرَابِيَّةُ ، الْقَضْمُ لَا الْخَضْمُ)

حيث شبه طريقته في الأكل بالمعروف من مال الله بطريقة أكل أولاد الضآن والماعز وهي الأكل الضعيف ، لأنه أول أكل هذه البهمة (والبهمة: هي أولاد الضآن والماعز) ويكون بأطراف السنان وليس بأقصى الأضراس، والتشبيه -هنا- تشبيه تمثيلي ، حيث شبه طريقة أكله - رضي الله عنه - من مال الله بطريقة أكل صغار الضآن والماعز ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من طريقة الأكل بأطراف الأسنان وليس بطحن الأضراس ؛ تعبيرًا عن عدم الأكل بنهم.

وفي خطبة أخرى من خطب الخلافة نستطيع أن نقف على تجليات النص وتفسير معانيه من خلال تحليل تراكيبه المكونة له ، حيث نجده يستهل هذا النص

(١) الألبيري: كتاب شرح الفردة: ج ١ / ص ٢٢٩ - ٢٣١.

بجملة ندائية ، ومعلوم أن النداء طلب ودعاء ، ومن ثم فإن استهلال النص وافتتاحه يدعو إلي التنبيه لما هو آتٍ فيه ، يقول عمر رضي الله عنه:

(يا أيها الناس: إني قد وليت عليكم)^(١)

فالمنادى به جملة خبرية تعلن عن أمر واقع هو ولاية عمر خلفاً لأبي بكر رضي الله عنهما ، ثم عطف عليها جملة شرطية علق فيها الخبر على الشرط كي يسبب دواعي خلافته على الناس ، حيث ربط العطف بين معنى الولاية ومدلوله ومعنى الشرط الذي امتدت فيه جملة الشرط من خلال الربط الإضافي بالواو أيضاً مما أعان على تماسك النص وتراكم المعنى في الشرط الذي علق به الجواب، فقال:

(ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ، ما توليت ذلك منكم)

ويلاحظ اكتناز المعنى في جملة جواب الشرط ؛ حيث اتكأت على الإشارة في قوله: (ذلك) أي أمر الخلافة من حيث القوة والشدة في النهوض بأمرها في أخطر شئون الرعية ، وهو ما عبر عنه في جملة الشرط. إن التعبير باسم الإشارة للبعد فيه إشارة إلي أن أمر الخلافة كان بعيداً عن تفكيره ، ولولا أنه توسم في نفسه الخير لأتمته والقوة والشدة في النهوض بما يلم بها من شئون ما فكر في هذا الأمر ، كما أن اسم الإشارة قد أفاد - أيضاً - أن عمر - رضي الله عنه - جدير بما وصفته به جملة الشرط.

وقد جسد عمر - رضي الله عنه - محنة الحكم في قوله:

(ولكفى عمر مهماً محزناً انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف أخذها؟ ووضعها أين أضعها؟ وبالسير فيكم كيف أسير؟ فربّي المستعان)

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ٢١٢.

لقد لخص عمر المحنة في ثلاثة أسئلة:

١. كيف آخذ الحقوق ؟ → (أخذ الحقوق)

٢. أين أضعها ؟ → (وضع الحقوق)

٣. كيف أسير ؟ → (السير في الرعية)

إن هذه الأسئلة الثلاثة تكشف عن قلق عمر واضطراب نفسه في مواجهة تبعات الخلافة ومسئولياتها الجسام ، إنها أسئلة تطرح عدالة عمر مع نفسه قبل أن يحققها في الناس. إن سؤال عمر عن حقوق الرعية: كيف يأخذها ؟ استفهام يفيد التحري وطلب الدقة في استخلاص حقوق الناس دون جور على أحد ، والسؤال عن المكان الذي يضع هذه الحقوق فيه يطرح معنى الحيرة والاضطراب ، ويكشف عن أن وضع الحقوق في مكانها المناسب ليس بالأمر الهين اليسير ! والسؤال عن الحال بـ (كيف) في قوله: كيف أسير ؟ يكشف عن سعيه في البحث عن الأسلوب الأمثل لقيادة الأمة نحو الرشاد.

وأنت ترى عمر بعد طرحه هذه الأسئلة الثلاثة يجد نفسه أشد حيرة من ذي قبل ، فالهم والحزن قد سيطر عليه ، فيرتب على كل ما سبق ويعقب عليه بالاستعانة بالله فيقول:

(فربي المستعان)

وَمَنْ غَيْرِ عَمْرٍ يُعْبِرُ بِصِرَاحَةٍ أَمَامَ رَعِيَّتِهِ عَنْ ضَعْفِ الْحَاكِمِ الَّذِي لَا تَنْفَعُهُ قُوَّةٌ وَلَا تَعِينُهُ حِيلَةٌ عَلَى قِيَادَةِ الرِّعِيَّةِ؟ ، وجعل قوة الحاكم الحقيقية مستمدة من رحمة الله وعونه وتأبيده ! فقال:

(فإنَّ عَمْرًا أَصْبَحَ لَا يَثِقُ بِقُوَّةٍ وَلَا حِيلَةٍ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ وَعُونِهِ وَتَأْيِيدِهِ).

وهذا مظهر آخر من مظاهر تجليات النص في نثر عمر - رضي الله عنه -
نراه من افتتاح النص في إحدى خطبه ؛ حيث يقول رضي الله عنه: ^(١)

(إن الله - عز وجل - قد ولّاني أمركم ، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم ،
وإني أسأل الله أن يعينني عليه ، وأن يحرسني عنده ما حرسني عند غيره ، وأن
يلهمني العدل في قسمكم الذي أمرني به).

فقد افتتح خطبته - كما ترى - بإعلان أن ولايته كانت بغير تخطيط منه ،
وأنها كانت بقدر الله.

وقد طلب عمر العون والحراسة والإلهام من الله ، وقد عبر عن هذه
المعاني بالمصدر المؤول في قوله:

١. أن يعينني

٢. وأن يحرسني

٣. وأن يلهمني

ليفيد به طلب دوام العون والحراسة والإلهام من الله في أداء رسالته مع رعيته
على النحو الذي أمر الله به في قرآنه.

وفي قول عمر - رضي الله عنه - : (إني امرؤ مسلم وعبدٌ ضعيف إلا ما
أعان الله عز وجلّ) لا تراه يلقي على الناس خبراً يعلن به أمراً هم يعرفونه عنه من
كونه مسلماً ؛ أمّا كونه عبداً ضعيفاً فهذا ما لا يعرفونه ، فمصدر الضعف -هنا-
ناتج عن التبعية الجديدة وهي مسئولية الخلافة ، لكنه علق ضعفه على انقطاع عون

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ٢١٢.

الله عنه ؛ ففي قوله: (إِلَّا مَا أَعَانَ اللَّهُ) ما يفيد تحول الضعف إلى قوة بعون الله ، مما يعلق قوة المسلم على عون الله ، وهذا ما يؤكد الضعف الإنساني في البشر !
وأما قول عمر - رضي الله عنه - : (وَلَنْ يُغَيِّرَ الَّذِي وَلِيتُ مِنْ خِلَافَتِكُمْ مَنْ خَلَقِي شَيْئًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ).

ففيه نفي دلالة الفعل (يُغَيِّرُ) نفياً تأبيدياً بـ (لَنْ) لأنها حرف برأسه يفيد نفي المضارع في المستقبل سواء أكان قريباً أم استمرارياً.^(١)

وقد أفاد هذا النفي استمرار بقاء عمر على ما عهده الناس من خلقه حتى بعد ولايته أمر المسلمين ، لكن الطريف -هنا- أنه علق نفي تَغْيَرِه بعد أن أصبح خليفة للمسلمين على مشيئة الله - سبحانه وتعالى - حيث قال: (إِنْ شَاءَ اللَّهُ) ، وإن هنا دخلت على الممكن وهو ألا يتغير خلق عمر رضي الله عنه بعد الخلافة ، لأن مسألة التغيير هذه لما كانت غير محققة ؛ إذ الأخلاق تتغير وليس من المقطوع به أن ثباتها دائم ، جاء بـ (إِنْ) فقال: (إِنْ شَاءَ اللَّهُ).

وأما القصر والاختصاص في قول عمر رضي الله عنه:

(إِنَّمَا الْعِظْمَةُ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَلَيْسَ لِلْعِبَادِ مِنْهَا شَيْءٌ).

فقد أفاد التنبيه على أمر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته من كون أن العظمة مقصورة على الله سبحانه وتعالى لا يشاركه فيها أحد.

وقد أفادت إنما - هنا - إيجاب فعل العظمة لله ونفيه عن عباده دفعة واحدة في حال واحدة.

وانظر إلى بلاغة النهي في قول عمر رضي الله عنه:

(١) إبراهيم إبراهيم بركات: النحو العربي ، ٤٧/٢ .

(فلا يَقُولَنَّ أحد فيكم إنَّ عمر تَغَيَّرَ منذ ولى)

لقد ارتبط أسلوب النهي -هنا- بما قبله من تراكيب في نص خطبة عمر، حيث ربطت الفاء بين جملة النهي وجملة القصر والاختصاص قبلها ، لأنه إذا كان مفاد المعنى في الجملة السابقة على جملة النهي يقصر العظمة على الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان عمر قد أخبر بأنه ضعيف ، وأنه نفى عن نفسه أي تغيير يمكن أن يلحقه بسبب من منصبه الجديد ، لذا جاءت دلالة النهي هنا حاملة معنى التحذير لكل متقولٍ عليه بالباطل من كونه قد تغير منذ أن أصبح والياً على الناس.

ودلالة النهي تفيد التحذير والزجر. وجاء التعبير بكلمة (أحد) ليضع حداً لكل متقول ولو كان صغيراً أو أيّاً كانت درجته بين الناس !

ونذهب إلي تركيب الشرط الذي أعلن عمر رضي الله عنه من خلاله عن استعدادة لتقي المظالم والعتاب من الرعية حيث جاء جواب الشرط حاملاً دلالة الأمر والطلب في قوله: (فليؤذني) ، أمّا أسلوب الشرط فهو: قول عمر رضي الله عنه:

(فأئماً رَجَلٍ كانت له حاجة ، أو ظلم مظلماً ، أو عَتَبَ علينا في خُلُقٍ فليؤذني ، فإنما أنا رَجُلٌ منكم.)

وهنا يجب أن ننبه على أن تركيب الشرطي وإن تكون من جملتي الشرط والجواب إلا أنهما دلاليًا بمثابة جملة واحدة ربط بين طرفيها دلاليًا تعالق المعنى بين الجواب والشرط. وإذا ما عرفنا أن الجملة في العربية هي الكلام الذي يحسن السكوت عليه بتمام معناه سواء أكانت الجملة فعلية أو اسمية أو شرطية، أقول أدركنا أن الدلالة الكلية لتركيب الشرط تعطي معنى واحدًا وإنها تتكون كما هو الحال هنا من جملتي الشرط والجواب.

أمّا الشرط ففي قول عمر رضي الله عنه:-

(فأَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ ، أَوْ ظَلَمَ مَظْلَمَةً ، أَوْ عَتَبَ عَلَيْنَا فِي خُلُقٍ)

حيث تصدرت جملة الشرط الأداة (أَيُّ) التي لحقت بها (ما) الزائدة التي تفيد التوكيد والاتساع.

والمقصود بالاتساع هنا: (اتباع الحدث أي: تعليق المعنى الآخر على المعنى الأول تَعَلُّقًا متسعا ليس لمرة واحدة ، وإنما لمرات عديدة ، وليس ذلك دلالة على زمان ، وإنما هو دلالة على تضامن الحدثين)^(١)

وأي في جملة الشرط للتعليق المطلق الدال على العاقل لإضافتها إلي رجل وهو اسم شرط جازم مبتدأ مرفوع بالضممة وجملة: (كانت له حاجة ...) الممتدة في محل جزم فعل الشرط.

فقد جمعت جملة الشرط في تركيبها بين خيارات متعددة شملت احتياج أي فرد من الرعية لقضاء حاجة لدى عمر رضي الله عنه ، أو ظلم في مظلمة ويرغب في أن ينصفه عمر ، أو له عتاب على الخليفة في سلوك سلكه معه ويريد أن يعلمه به. أقول كل هذه الجمل التي جاء الربط الإضافي فيها بأداة العطف (أو) ، أفادت هنا واحدًا من أمرين:-

أولاً: إمّا أنها تفيد هنا التفصيل ، إذا كانت كلمة رجل لا تفيد مطلق عموم الرجال وإنما تفيد النص على رجل بعينه صغر حجمه أم كبير.

ثانياً: أنه في هذا السياق تفيد التخيير إذا اعتبرنا أن كلمة رجل تفيد مطلق عموم الرجال وفي ظني أن أول في تلك الجملة تتحمل التأولين معاً.

(١) إبراهيم إبراهيم بركات: النحو العربي ، ٤٢٥/٥.

أمّا الجواب على جملة الشرط السابقة فقد جاء مختصرًا في قوله: (فليؤذني) بمعنى فليعلمني ، فعلق عمر - رضي الله عنه - علمه بحاجة هذا الرجل أو شكايته ، وأو عتابه على إعلامه عمر بها ، ثم عطف على هذه جملة اسمية بفاء التعليل في قوله:

(فإنما أنا رجل منكم)

حيث ارتبط معنى هذه الجملة الاسمية الذي أفاد الدوام والثبوت في كون أن عمر مثل الرعية في الإحساس بطلب الحاجة أو الشكاية وأو العتاب. كما أن معنى الجملة قد أفاد القصر والاختصاص.

أقول ارتبط معنى هذه الجملة بجملة الجواب قامت منها مقام العلة والسبب.

أمّا قول عمر: (فعلَيْكُمْ بتقوى الله في سرّكم وعلائيكم ، وخُرّماتكم وأعراضكم.)

فقد تصدرته فاء الاستئناف ، وتلاها أسلوب أمر من خلال اسم الفعل (عليكم) بمعنى ألزموا وقد أفاد الحث والتببيه نحو الالتزام بتقوى الله الذي جاء مخصصًا بأربعة أشياء ؛ اثنان منها جاء في بنية التضاد في قوله (سرّكم وعلائيكم) ليفيدا بذلك الجمع بين الاهتداء بالتقوى إلى الطريق الصحيح والإفتداء في العلن.

أمّا الأمر بتقوى الله في الحرمات والأعراض ، فيفيد صيانة المجتمع من خلال الالتزام بصيانة الحرمات والأعراض.

أمّا الأمر في قول عمر - رضي الله عنه-: (وأعطوا الحق من أنفسكم) فإنه يفيد الحث والالتزام بإمضاء الحق على وجه من كل مسلم قبل أن يُطالبَ منه، فإن من يعطي الحق من نفسه يأخذه من غيره لأنه أعطى الآخر عبْرَة ومثلاً.

ونذهب إلي آخر ما في هذه الخطبة من بلاغة في التركيب في قوله: (ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إليّ ، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هودة ، وأنا حبيب إليّ صلاحكم ، عزيز عليّ عنكم).

أمّا صدر هذا التركيب جملة نهى أفادت الكف عن التخاصم والدعوة ضمناً إلي التسامح والتصالح ، وقد غلّظ الخطيب دلالة الكف بجملة مؤكدة قامت من النهي مقام العلة والسبب فزادت من إقناعنا بدلالته ، في قوله: (فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هودة).

حيث أفادت هذه الجملة قسوة عمر في القصاص حال حكمه بين المتخاصمين، كما نفت الجملة أي رحمة أو شفقة من عمر تجاه أحد من الناس حال تخاصمه إليه.

أمّا قول عمر - رضي الله عنه - (وأنا حبيب إليّ صلاحكم عزيز عليّ عنكم) ففيه ربط صوتي من خلال السجع بين الجملتين في قوله: (صلاحكم) و (عنكم) ، وأيضاً من خلال التوازي التركيب بين جملتين اسميتين مع ملاحظة أنه جاء ناقصاً لاختفاء المسند إليه (المبتدأ) في الجملة الثانية في قوله: (عزيز عليّ عنكم) لدلالة الجملة الأولى عليه من ناحية ، وللتعويل على إثارة حس المتلقي وبعث خياله كي يفهم بقرينة ذكر المسند إليه في الجملة الأولى ما طواه التعبير من أمره في الجملة الثانية.

ومن خطب الخلافة أيضاً عند عمر - رضي الله عنه - خطبته التي دعا فيها الناس إلي التأمين على دعائه ، وبالتالي فنحن أمام خطبة دعائية بناها الخطيب على أسلوب الأمر من خلال أسلوب النداء الذي مثل الأمر فيه المنادى به، أمّا

المنادى فقد مثله لفظ الجلالة في الصيغة المعروفة وهي (اللَّهُمَّ) حيث تمثل الميم المشدودة الملحقة بلفظ الجلالة عوضاً عن حرف النداء المحذوف^(١).

وقد ورد النداء بهذه الصيغة في الخطبة سبع مرات وقد طالت بعض جمع النداء لطول المنادى به من خلال الربط الإضافي من نحو ما نجد في جملة النداء الأولى في قول عمر: (اللَّهُمَّ - إني غليظ - فليني لأهل طاعتك ، بموافقة الحق وابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم مني لهم ، والاعتداء عليهم).

حيث طالت جملة الندائية في قول عمر - رضي الله عنه - (فليني لأهل طاعتك بموافقة الحق و و) من خلال التشريك (بواسطة حروف العطف بين المعطوف والمعطوف عليه على جهة الإيجاب والتقييد في تبعية العطف آتٍ من أن المعطوف عليه غير مطلق في انفراده بالحكم الذي يكون له ، وليس هناك حد تقف عنده تبعية العطف مع بعض الحروف كالواو والفاء وثم على سبيل المثال)^(٢).

وقد شملت الجملة الندائية الأولى في هذه الخطبة على أسلوب أمر، الأول في قوله: (ليني لأهل طاعتك ...)

وقوله: (وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك ...) وقد لاحظنا أن النداء في صيغة السبعة على مدار الخطبة قد جاء مصاحباً لصيغة الأمر فقط وإن كان المعتاد - كما لاحظ القدماء - أنه يصحب الأمر والنهي في الغالب الأعم.

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ٢١٣.

(٢) محمد حماسة عبداللطيف: بناء الجملة العربية ، ص ٦٧..

وقد سبق الأمر في جملة النداء الأولى في هذه الخطبة بما يحث عليه وهو قول عمر - رضي الله عنه- **(إني غليظ)** حيث قامت هذه الجملة مقام العلة والسبب لطلب عمر - رضي الله عنه - العون من ربه على أن يلين لأهل الطاعة.

وفي الأمر الثاني دلّ الأمر على طلب الاستقواء بالله في الشدة في حساب أعداء الله ثم علق طلب القوة والغلظة علي شرط يحقق العدل في حسابهم وهو انتقاء الظلم لهم من جانب عمر أو الاعتداء عليهم.

وفي الصيغة الثانية من صيغ النداء السبعة في هذه الخطبة نجد الجملة الندائية قد تقدم أسلوب الأمر فيها جملة تعليلية ترشح له وتقويه في قول عمر - رضي الله عنه-:

(اللهم إني شحيح فسَخِّتني في نوائب المعروف قصداً من غير سرفٍ ولا تبذير ولا رياء ولا سُمعةً واجعلني أبغي بذلك وجهك والدار الآخرة)

وقد تمثلت الجملة الحاثّة على الأمر -هنا- في قول عمر - رضي الله عنه- **(إني شحيح)** ما ساهم في الحث على الأمر والترغيب فيه.

وقد دل الأمر على طلب استنهاض همة النفس في فعل الخير مقيداً بقيود تنقيه وتطهره وهي أن يكون سخاء عمر دون إسراف أو تبذير أو رياء أو شهرة.

وفي قوله **(واجعلني أبغي بذلك وجهك والدار الآخرة)**

ارتبطت دلالة الأمر هنا بدلالته في الأمر الأول من حيث أن يكون سخاؤه الذي قيده ليظهره من الشوائب طلباً لوجه الله الكريم وزاداً للآخرة.

وفي الصيغة الثالثة من صيغ النداء وهي قول عمر - رضي الله عنه- **(اللهم ارزقني خَفَضَ الجناح ولين الجانب للمؤمنين)** نجد دلالة الأمر قد تمثلت في طلب التواضع في المعاملة مع أهل الإيمان ، وقد عبرت الصورة الأدبية في قوله

(خفض الجناح ولين الجانب) عن هذا المعنى من خلال الكناية عن الانكسار والخضوع والموادعة.

وفي الصيغة الرابعة يقول عمر - رضي الله عنه -:

(اللهم إني كثيرُ الغفلة والنسيان ، فألهمني ذكرك عل كل حال ، وذكر الموت في كل حين)

نجده قد قدم تأكيد الأمر على الأمر في الجملة الندائية في قوله (إني كثير الغفلة والنسيان) حيث أفادت هذه الجملة التأكيد على قيمة الأمر وحثت على طلبه، إذ الغفلة والنسيان هما سبب طلب عمر الإلهام من ربه كي يداوم ذكره على كل حال وفي كل وقت ، وأن يذكر الموت كذلك في كل مناسبة، ومن ثم فأنت تلاحظ أن هذا التقديم كان بمثابة العلة الموجبة لهذا الأمر ، ولما كانت العرب تقدم ما تريد أن تجعله مناط الرعاية والاهتمام كانت هذه الجملة بمثابة المثير الذي دعى إلي هذا الطلب.

وفي الصيغة الخامسة يبني عمر - رضي الله عنه - نداءه على علة أوجبت ودعت إليه من خلال الجملة المؤكدة أيضا في قوله: (إني ضعيف عن العمل بطاعتك) حيث أكدت هذه الجملة أثر الضعف الإنساني في إضعاف عمر - رضي الله عنه - عن العمل بطاعة ربه مما جعل هذا الأمر مسوغا لطلب النشاط من ربه في هذه الطاعة ، وطلب القوة عليها من خلال النية الحسنة التي علقها على عزة الله وتوفيقه لعباده فقال: (اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك، فارزقني النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعزتك وقوتك).

وفي الصيغة السادسة: نجد النداء يطلب فيه عمر - رضي الله عنه - من خلال الأمر الذي يمثل الجملة الندائية ؛ أقول يطلب من ربه الثبات باليقين والبر والتقوى، والحياء من ذاته العلية ويعطف عليه أمر آخر يطلب فيه من ربه أن يرزقه

الخشوع في كل أمر يرضيه ، وكذا المحاسبة لنفسه وإصلاح وقته، والحذر من الشبهات صيانة لنفسه من الوقوع في الخطأ.

يقول عمر - رضي الله عنه-:

(اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى ، وذكر المقام بين يديك ، والحياء منك، وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني ، والمحاسبة لنفسي ، وإصلاح الساعات والحذر من الشبهات.)

وفي الصيغة السابعة الأخيرة: يطلب عمر - رضي الله عنه- من ربه أن يرزقه نعمة التأمل والتفكير في كل آية يتلوها لسانه من القرآن الكريم ، كما طلب العون على فهم ما يتلوها لسانه من القرآن وأن يعرف معانيه عجائبه. وقد رأيت أنه قد جعل كل هذه المطالب رزقاً يمنحه الخالق لمن يشاء من عباده ، وقد رأيت فيما مضى أن عمر قد ألح في طلب الرزق من ربه وهو رزق يتصل ببناء الذات الإنسانية بناءً صحيحاً يجعلها خالصة لربها ذلك الخلوص الذي تَوَجَّهُ بإجادة التعامل مع النص القرآني من خلال المنح الإلهية التي لن تكون إلا بعون الله لعمر - رضي الله عنه- ولغير عمر من المسلمين.

يقول عمر - رضي الله عنه-: (اللهم ارزقني التفكير والتدبر لما يتلوها لساني من كتابك والفهم له ، والمعرفة لمعانيه ، والنظر لعجائبه والعمل بذلك ما بقيت.)

المبحث الثاني

تجليات النص في خطب عمر رضي الله عنه العامة

هي:- خطبة من خطب عمر العامة^(١) استهلها بالنداء الذي حذف أداته، وقد جاء المنادى عامًا حيث قال: (أيها الناس) حيث جاء النداء هنا لمطلق العموم وغايته البلاغية الحث والتنبيه.

أمّا المنادى به فهو جملة اسمية مؤكدة في قوله:

(أيها الناس إن بعض الطمع فقر ...) ثم حدثت إطلالة وامتداد لجملة المنادى به في قوله: (إن بعض الطمع فقر.) من خلال التشريك بحرف الواو ، حيث عطفت هنا بين جملة المعطوف والمعطوف عليه على جهتي الإيجاب والنفي، مما يؤكد أن المعطوف عليه غير مطلق في انفراده بالحكم الذي يكون له مما سوغ لعطف أربع جمل عليه في قوله: (وإن بعض اليأس غنى ، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون ، وأنتم مؤجلون في دار غرور.)

ويلاحظ أن بين الجملتين الأوليين توازيًا تركيبيا تاماً هكذا:

(١) إن بعض الطمع فقر

(٢) وإن بعض اليأس غنى

وأن الجملتين التاليتين للجملتين السابقتين بينهما تواز تركيبى ناقص وربط صوتي من خلال السجع الواقع بينهما بحرف النون هكذا:

(١) وإنكم تجمعون ما لا تأكلون

(٢) وتأملون ما لا تدركون

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ٢١٤.

ويبدو النقص في التوازي -هنا- من خلال حذف إنَّ واسمها من الجملة الثانية عملاً بقاعدة حذف الثاني لثبوت نظيره في الأول تحقيقاً لبلاغة العبارة بإيجازها وطي ما لا حاجة إليه في التعبير.

ويلاحظ أن القراءة المدققة لهذه الخطبة توقفنا على شيوع التركيب الشرطي بها وكذا أساليب الأمر والنهي والنداء ، مع الإشارة إلي ارتباط هذه الأساليب بمرام بلاغية.

ففي قول عمر - رضى الله عنه-: (فمن أسرَّ شيئاً أخذ بسريرته) تركيب شرط علق فيه الجواب بشرطه فأخذ عمر وحسابه لكل من أخفى أي شئ معلق على هذا الإخفاء مما يعني تعذر الحساب بالسرائر لأنها ليست من علم البشر!! وقد عطف عمر على التركيب الشرطي السابق تركيباً شرطياً مغايراً له في الصياغة والدلالة إذ إنه ضده في المعنى حيث يقول عمر -رضي الله عنه-: (ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً).

حيث علق عمر الظن الحسن على إظهار العلانية الحسنة مما يعني أن الظن الحسن يكون دائماً مصاحباً للعلانية الحسنة في كل حال وقد جاءت صياغة الشرط وجوابه في التركيبين ماضية مجافية أصل التركيب الذي لابد فيه من مجئ الشرط على الأقل في المضارع ، مما يعني حمل التركيب الشرطي الذي يرد فيه الشرط والجواب ماضيين على التأويل والتحليل الدلالي وفق سياقه.

ومن ثم يكون تفضيل عمر - رضى الله عنه - الماضي على المضارع في هذين التركيبين لإظهار الرغبة في أن وقوع الأخذ بالسريرية يرجع إلي وقوع الإسرار بالشئ وعدم إظهاره في التركيب الأول ، وإلي الرغبة أيضاً في أن وقوع الظن الحسن معلق على وقوع ظهور العلانية الحسنة ومرتب عليها في التركيب الثاني.

ثم يربط عمر - رضي الله عنه - هذين التركيبين الشرطيين بجملة أمرية تصدرتها فاء التعليل في قوله:

(فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر)

وقد أفاد الأمر - هنا- الحث والتحفيز على إبراز الوجه الحسن للسلوك الإنساني، إذ في إظهاره صيانة للمجتمع المسلم من أي تَقَوُّل ، وإذعان لصوت العقل الذي يؤكد على أن علم السرائر من اختصاص الخالق وحده.

وتشغل عمر - رضي الله عنه - مسألة السلوك الظاهر للسلم ، لذا نراه يقدمها من خلال تركيبين شرطيين أما الأول:

فإنه يعلل فيه عدم قبوله للسلوك القبيح اتكاءً من صاحبه على ادعائه أن سريره حسنة مما يجعل جواب الشرط يفيد عدم تصديق عمر - رضي الله عنه- لهذا النموذج إذ يعلق عدم تصديق هذا المدعي على إظهاره الشكل القبيح من ظاهره فيقول: **(من أظهر لنا قبيحاً وزعم أن سريره حسنة لم تصدقه.)**

أما التركيب الثاني: فقد علق فيه عمر - رضي الله عنه - الظن الحسن على العلانية الحسنة حال ظهورها.

فقال: **(ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً)** وفي سعي عمر - رضي الله عنه- لصيانة النفس المسلمة من الشح تجده يلجأ إلي الأمر البلاغي الذي أفاد الإخبار والتنبيه على خطورة الشح إذ إنه أحد شعب النفاق فيقول: **(واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق)**

ثم يربط بين الأمر السابق وأمر تال له بفاء التعليل فيقول: **(فأنفقوا خيراً لأنفسكم)** حيث أفاد الأمر في التركيب السابق الحث والتوجيه ثم يعطف على هذا الأمر شرطاً يعلق فيه الفلاح والنجاح على وقاية النفس من الشح من خلال النص

القرآني في قوله: (وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الذي أعقب في نفس الآية القرآنية^(١).

ويستوقفنا أسلوب النداء الذي تكون من:

منادى + منادى به تكون من ثلاث جمل أمرية + جملة نهى من خلال الربط الإضافي بالواو التي كانت وسيلة لتماسك جملة المنادى به التي طالت.

يقول عمر - رضي الله عنه -: (أيها الناس أطيعوا ميثاكم وأصلحوا أموركم، واتقوا الله ربكم ، ولا تلبسوا نساءكم القباطي فإنه إن لم يشف فإنه يصف).

فهذه صور من صور النداء المثالية التي ارتبط فيها النداء بالأمر والنهي، ارتباط مصاحبة فقد دعا عمر - رضي الله عنه - من خلال الأمر في جملة الثلاثة إلي العمل الجاد من أجل أن يكون مقام المسلم طيبا ، وأمره صالحاً، في الأمر الثاني تفيد دلالاته التنبيه على ضرورة أن يحاط المسلم بسياج التقوى كي تكتمل صورته الصحيحة وقد عطف على هذه الأوامر الثلاثة جملة نهى طالب فيها المسلمين بالكف عن السماح لنسائهم بارتداء الملابس التي تحكي ما تحتها وهي القباطي. إذ إنها ثياب من كتان بيض رقاق.

وقد ذيل عمر - رضي الله عنه - جملة النهي بجملة مؤكدة حثت على النهي ودعت إلي امتثاله ، وقامت من النهي مقام العلة والسبب في قوله:

(فإنه إن لم يشف فإنه يصف)

(١) سورة التغابن: الآية ١٦.

حيث فسّرت هذه الجملة العلة الدافعة إلي هذا النهي عن لبس القُبَاطِي، وذلك لكونها إن لم تحكي ما تحتها فإنها تصفه ، ومن ثم فالنتيجة واحدة ، وهي الخروج عن آداب الحشمة والوقار !

وهذا نداء أخير في تلك الخطبة انحصرت دلالاته في إخبار عمر -رضي الله عنه- رعيته عن ثقل الخلافة وتبعاتها على نفسه ، حيث جاءت جملة المنادى به جملة اسمية منسوخة جاء خبرها جملة فعلية تصدرتها لام التوكيد، وقد انحصرت دلالة المنادى به في تأكيد عمر على تمنيه أن ينجو من أعباء الخلافة لا له ولا عليه ، حيث يقول:

(أيها الناس: إني لَوَدِدْتُ أن أنجو كَفَافًا لا لي ولا عليّ)

وقد عطف الخطيب - هنا- على جملة المنادى به جملة أخرى أطالت من جملة المنادى به في قوله: (وانني لأرجو إن عُمِرْتُ فيكم يسيرًا أو كثيرًا أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله.)

وقد استعان الخطيب في توكيد المعنى في جملتي المعطوف والمعطوف عليه ب: (إنَّ) و(اللام). وقد أفادت دلالة الجملة الثانية رغبة عمر - رضي الله عنه- في دوام العمل بالحق في الناس مع تعليق هذه الرغبة على مشيئة الله سبحانه من ناحية ومن ناحية ثانية ربطها - أيضاً - بمدة بقائه في الدنيا أيًا كانت هذه المدة ضئيلة أو كبيرة !

وهذه خطبة أخرى من خطب عمر - رضي الله عنه - تستوقفنا فيها بعض التراكيب التي وجّهت المعنى في النص وتركت أثراً دلاليّاً بعيداً فيه.

ومن أمثلة هذه التراكيب ما نطالعه في الجزء الآتي من الخطبة ؛ حيث يرد تركيب الشرط غير الجازم الذي تنصده "لو" الشرطية التي أفادت "التعليق الحدتي الامتاعي"^(١).

يقول عمر - رضي الله عنه - موجهها حديثه إلى جماعة المسلمين:^(٢)

(ومن نعم الله عليكم نِعْمَ عَمَّ بها بني آدم ، ومنها نِعْمَ اختص بها أهل دينكم، ثم صارت تلك النعم خواصها وَعَوَامُّها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قُسِمَ ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتبعهم شكرها ، وفَدَحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله.)

يلاحظ على النص السابق أن عمر - رضي الله عنه - يتحدث فيه عن نوعين من نعم الله على عباده:

الأول: نوع قيدت فيه النعم بالعموم لبني آدم والنوع الثاني: من النعم قيدت بالتخصيص لأهل الإسلام وقد أجمع النوعان من هذه النعم في دولة الإسلام وأنت تلاحظ هذا التقيد في النوعين حادث من جراء تقيد المبتدأ فيها بجملة وصفية رسخت فيه معنى الثبوت والدوام في قوله:

١. نِعْمَ عَمَّ بها بني آدم

وقوله: ٢. نِعْمَ اختص بها أهل دينكم

(١) إبراهيم إبراهيم بركات: النحو العربي: ٣٨٦/٥.

(٢) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ٢١٥.

وإذا كان الخطيب قد عطف بين النوعين بواو العطف لمطلق الجمع والاشتراك في الدلالة (أعني دلالة التفصيل بعد الإجمال لأنه قال في مفتتح النص: ومن نعم الله عليكم ...)

أقول إذا كان قد ذكر ذلك بالنسبة لتفصيل تلك النعم فإنه قد عطف المعنى الممتد عبر حرف الربط الإضافي في الواو ، بحرف عطف دلالاته مغايرة وهو (ثم) التي تعيد التراخي والمدة في قوله (ثم صارت تلك النعم، خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم).

وقد أفادت (ثم) -هنا- تحول هذه النعم بعمومها في بني آدم أو بخصوصها لأهل الإسلام إلي الاستقرار والدوام في دولة الإسلام وزمانه وطبقة أهله، تفضلاً وتميزاً.

ونأتي إلي تركيب الشرط الذي جاء مصدراً بـ (لو) التي أفادت امتناع ما وليها واستلزامه لتأليه على رأي ابن مالك ، وهي حرف شرط لما كان سيقع لوقوع غيره على حد قول سيبويه^(١)

يقول عمر: (وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلي امرئ خاصة إلا لو قُسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها وفدَحَهُمْ حَقَّهَا إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله).

أولاً: يفيد تأمل أسلوب الشرط غير الجازم - هنا - المبالغة في قيمة وفضل نعمة واحدة من أنعم الله على عباده من حيث أن تقسيمها بين الناس يتعبهم في شكرها ، ويعجزهم عند سداد حقها ، فما بالك إذا وصلت إلي امرئ واحد، فكيف سيؤدي حقها إذا كان الناس جميعهم لا يقدرّون على هذا الأداء الذي علقه الخطيب

(١) راجع: الكتاب ، ٢٢٤/٤ ، والجني الداني: ٢٧٥.

على عون الله مع الاحتراز من كون أن العون من الله على شكر هذه النعمة وسداد حقها معلق أيضا على الإيمان بالله ورسوله !

ومن هنا نفهم امتناع وقوع معنى جملة الجواب لامتناع وقوع معنى جملة الشرط وهو أن يُقَسَّم ما وصل إلي امرئ واحد نعمة واحدة بين الناس كلهم، إذ أن الحق تبارك وتعالى لا يعطي النعم مجزأة وإنما يعطيها كاملة ، فإن صح ذلك - وهو محال - فإنه سيتعب على تجزيئها ، ويحول دون سداد حقها، فما بالك إذا أعطاه دون تقسيم فكيف يشكرونها ويقضون حقها ؟!

وهذا أسلوب أمر حمل العديد من غايات البلاغة ومقاصدها في قول عمر - رضي الله عنه-: (فاذكروا عباد الله بلاء الله عندكم ، واستمتعوا بعمه الله عليكم، وفي مجالسكم مثني وفرادى ؛ فإن الله - عز وجل - قال لموسى: (أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)^(١) وقال لمحمد ﷺ: (وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ)^(٢)

ويرمي أسلوب الأمر -هنا- إلي الحث والالتفات إلي أمرين:

الأول مداومة استحضار اختيار الله لأهل طاعته ويكون ذلك بالمواظبة على ذكره بشكره على نعمه التي نراها في الأمر الثاني: حينما يحض عمر - رضي الله عنه - المسلمين على طلب تمام نعمة الله عليهم في مجالسهم وفي حال انفرادهم.

وقد أعقب هذا الأسلوب ما اعتدناه في مثله من ورود جملة مؤكدة مقرونة بالفاء التي تفيد التعليل ؛ حيث تزيد هذه الجملة من مساحة الحث والترغيب والامتنان

(١) سورة إبراهيم: الآية ٥.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٦.

لهذا الأمر ، فهي -هنا- تقع من الأمر مقام العلة والسبب، مما جعل الأمر أدخل في البلاغة وأقوى في البيان.

يقول عمر - رضي الله عنه- (فإن الله عز وجل قال لموسى: ثم يذكر نص الآية، ويعطف عليه قول الحق لنبيه محمد فيقول وقال لمحمد ﷺ: ويذكر نص الأمر أيضاً مع ملاحظة أن الأمرين أولى كلاهما عناية خاصة بقضية الذكر التي تعنى الحث على مراجعة موقف قوم كل نبي منهما مما أنعم الله به عليهم من نعم:

فأما أصحاب موسى فقد صدر الأمر الإلهي بتذكيرهم أي إنذارهم بوقائع أيام الله التي دفعت على الأمم قبلهم: قوم نوح وعاد وثمود . ومنه أيام العرب - على قول الزمخشري - لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار ، ويوم الفجار، يوم قضة وغيرها. أو على قول ابن عباس الذي رأي أن التذكير يشمل: نعماءه وبلاءه؛ فأما نعماءه ، فإنه ظلَّ عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى، وفلق لهم البحر. وأما بلاءه فإهلاك القرون.^(١)

أما أصحاب محمد ﷺ ، فإنه من باب استنمام نعمة الله عليهم استحضارهم لها بدوام المذاكرة للعبرة والإحساس بهذه النعمة بذكر الوقت الذي كانوا فيه أقللة أدلة مستضعفين في أرض مكة قبل الهجرة تستضعفهم قريش.^(٢)

وهذا أسلوب شرط غير جازم آخر تتضح بلاغته من خلال تعليق امتناع وقوع معنى الجواب فيه الامتناع وقوع معنى الشرط في قول عمر - رضي الله عنه-: (فلو كنتم - إذ كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا - على شعبة من الحق تؤمنون

(١) الزمخشري: الكشاف ، ٥٤٠/٢.

(٢) الكشاف: ٢ / ص ٢١٣.

بها ، وتستريحون إليها ، مع المعرفة بالله ودينه وترجون بها الخير فيما بعد الموت لكان ذلك ، ولكنكم كنتم أشد الناس معيشة وأعظم الناس جهالة.)

حيث نلاحظ في هذا التركيب الشرطي امتناع وقوع معنى جملة جواب الشرط من كون أن يكون العرب قبل مجئ الرسول ﷺ إليهم على شعبة من الحق يؤمنون بها حتى تمكنهم من رجاء الخير فيما بعد الموت.

وذلك لامتناع وقوع معنى جملة الشرط من كون أن العرب كانوا على شعبة من الحق إذ كانوا في ذلك الوقت مستضعفين محرومين خير الدنيا ، بدليل أنهم كانوا فيما يروى عن قتادة: أذل الناس ، وأشقاهم عيشاً ، وأعراهم جاداً، وأبينهم ضلالاً وهذا هو ما أكدته عمر - رضي الله عنه - بقوله: (ولكنكم كنتم أشد الناس معيشة ، وأعظم الناس بالله جهالة).

ومعنى أشد الناس معيشة في قول عمر -هنا- أي أشقاهم عيشاً وأعراهم جلدًا كما قال قتادة رضي الله عنه يؤكلون ولا يأكلون !!

ويختتم عمر - رضي الله عنه - هذه الخطبة بجملتين خبريتين ، الأولى منسوخة تنصدها (لا) النافية للجنس في قوله: (لا شئ أسلبُ للنعمة من كفرانها) حيث نفت (لا) هنا (حكم الخبر عن كل ما يقع من ذوات أو أجزاء في دائرة مفهوم المبتدأ، أي نفي مضمون الخبر عن جنس مدلول المبتدأ)^(١)

حيث تضمنت كلمة (شئ) هنا كل جزء من أجزاء مدلول الشيئية ومن بينها (الكفران) الذي جعله عمر أشد أجزاء الشيئية استغراقاً في سلب النعمة لأنه يعني الجحود وعدم الاعتراف بالنعمة من ناحية ، ومن ناحية ثانية يحجبها ويستترها فلا يراه أحد!

(١) إبراهيم إبراهيم بركات: النحو العربي ، ٢٢٠/١.

وقد عطف عليه الخطيب - هنا- جملة منسوخة أيضا تتصدرها (إنَّ) التي علقت المسند في قوله (أمنٌ للغير) بالمسند إليه (الشكر) تعليق اختصاص ثم عطف على هذه الجملة جملتين حذف فيهما المبتدأ اكتفاءً بالإحالة إلي المبتدأ في جملة المعطوف عليه الأولى (إن الشكر أمن للغير) ، وكأنه ودَّ لو قال: والشكر نماً للنعمة ، والشكر استجلاب للزيادة. ولو فعل ذلك لترهل الأسلوب وضاع المعنى، ومن ثم كان حذف المبتدأ في هاتين الجملتين التاليتين للجملة الأولى أحسن من ذكره ، وإضماره في النفس أولى وأنس من النطق به كما يقول عبدالقاهر.

ومن ثم فقد حقق حذف المبتدأ -هنا- مقصداً آخر تمثل في (بعث الفكر وتنشيط الخيال ، وإثارة الانتباه ، ليقع السامع على مراد الكلام ، ويستنبط معناه من القرائن والأحوال ، وخير الكلام ما يدفعك إلي التفكير ، ويستفز حسك وملكاتك ؟ وكلما كان اقدر على تنشيط هذه القدرات كان أدخل في القلب، وأمس بسرائر النفس المشغوفة دائماً بالأشياء التي تومض ولا تتجلى ، وتتقنع ولا تتبدل).^(١)

ويلاحظ أن الجمل الثلاثة - هنا- قد تعلق فيها أمن النعمة من التبدل والتغير وكذلك إنمائها وزيادتها على الشكر تعلق قصر وخصوصية.

وهذه خطبة لعمر - رضي الله عنه - بناء منطقياً على أسلوب الشرط الذي جاءت بعض تراكيبه دالة على المعنى في ذاتها ، وجاء البعض الآخر بقرينة دالة على المعنى ومؤكدة له!^(٢)

وقد استهلها كما هو معتاد في خطابه - العصر بقوله (أيها الناس) أي النداء الذي أفاد الطلب وحمل معنى الدعاء !

(١) محمد أبو موسى: خصائص التراكيب ، ص ١١٧.

(٢) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ٢١٧.

حيث بنيت تلك الخطبة على خمسة من تراكيب الشرط الجازمة ، وقد جاءت هذه التراكيب الخمسة مصاغة من خلال أداة واحدة هي: (من) الشرطية.

أما التركيب الشرطي الأول: ففي قول عمر - رضي الله عنه:-

(من أراد أن يسأل عن القرآن ، فليأت أبي بن كعب)

حيث علق الجواب المتمثل في الإتيان إلي أبي بن كعب على طلب السؤال عن القرآن. ويلاحظ أن جواب الشرط فعل مضارع مجزوم ومقترن بالفاء ليس في هذا التركيب فقط وإنما في التراكيب الخمسة الواردة في نص هذه الخطبة.

كما أن التراكيب الشرطية الثلاثة الأول بينها توازٍ تركيبى هكذا:

١. من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب.

٢. ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت.

٣. ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل.

ويلاحظ أن التوازي التركيبى هنا متطابق بين هذه الجمل ، كما أنه من قبيل التوازي الجملى. وهو يمثل وسيلة صوتية في النص النثري تقوم بوظيفة موازية لوظيفة الوزن والقافية في الشعر.

ويقصد بالتوازي التركيبى (تكرار البنية التركيبية مع ملئها بمحتوى مختلف، فيعاد استخدام سلاسل متشابهة ، تقدم من خلالها أحداث متنوعة)^(١)

هذا ما حدث في الجملة الماثلة أمامنا حيث تكررت بنية الشرط وتم ملئها بمحتوى مختلف فهو في الجملة الأولى يتمثل في طلب السؤال عن القرآن وقد علق بإتيان السائل لأبي بن كعب ، وفي الجملة الثانية تم ملء محتواها بوحداث معجمية

(١) تعريف روبرت دي بوجراند ودرسلر نقلاً عن عزة شبل علم لغة النص ، ص ١٣١.

جديدة وإن بقي التركيب النحوي ثابتاً في الجمل الثلاثة (وهو تركيب الشرط المكون من اسم شرط (من) + فعل ماض (أراد) + مصدر مؤول (أن يسأل) + وحدة معجمية تتغير بتغير التركيب).

حيث تغير مضمون السؤال من السؤال عن القرآن إلي السؤال عن الفرائض مما أحال على وحدة معجمية جديدة في جملة الجواب تمثلت في تحديد من يجيب عن السؤال وهو (زيد بن ثابت).

وهكذا أيضاً تغير السؤال في الجملة الثالثة وتمثل في كلمة (الفقه) مما غير في جملة الجواب حيث قيدت إرادة السؤال عن الفقه بالإتيان إلي معاذ بن جبل.

وقد أدى تكرار البني التركيبية في النص على هذا النحو إلي خلق نمط من الألفة لدى المتلقي على مستوى شكل صياغة هذه الجمل ، مع التأكيد على وعي المتلقي بتغير المدلول مع كل شك.

وأما التركيب الثاني في قول عمر: (ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيدا بن ثابت) حيث علق على الإتيان إلي زيد بن ثابت بالسؤال عن الفقه تعلق إحاطة ودراية.

وأما التركيب الثالث ففي قول عمر - رضي الله عنه:-

(ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل.)

حيث تعلق الإتيان إلي معاذ بن جبل بطلب السؤال عن الفقه تحديداً والتركيب الثلاثة تكشف عن خصوصية طلب السؤال المعلق على ضرورة الإتيان إلي من هو أهل للإجابة الصحيحة عليه ، ومن ثم جاء تعلق الجواب بالشرط في التركيب الثلاثة تعلقاً ثم بناؤه على تعالق النتيجة بالسبب وتلك من أهم مقاصد التركيب الشرطي في اللغة العربية.

وإذا ما ذهبنا إلى التركيب الرابع من التراكيب الخمسة في نص الخطبة وجدناه تركيباً ناقصاً تحويل المفعول به في بنية الجواب إلي ضمير المخاطب العائد على منتج النص وفاعله وهو عمر بن الخطاب في قوله:

(ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني.)

حيث تعلق إتيان الناس إلي عمر للسؤال عن المال ولما كان المعني في هذا التركيب لا يزال ناقصاً وكان سائلاً يسأل: ولماذا عمر؟ ويأتي الجواب عن هذا السؤال الضمني من خلال الجملة التعليلية المصدرة بفاء التعليل في قول عمر:

(فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً.)

حيث تم ربط هذه الجملة بجملة الجواب من خلال الضمير الغائب في قول عمر - رضي الله عنه - (له) أي للمال ولنا وقفة مع حرف العطف (ثم) في حديث عمر - رضي الله عنه - عن تقسيم مال المسلمين في قول:

(إني بادئ بأزواج رسول الله ﷺ فمعطيهم ، ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم أنا وأصحابي ، ثم بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم.)

إن (ثم) في هذا المجتزأ من الخطبة تفيد مجرد الترتيب ، حيث ترتب أصحاب الأفضلية في قسمة عطاء المال على حسب منازلهم وفيها أيضاً معنى التعقيب حيث بدأ بزواجات الرسول ﷺ ثم المهاجرين ، ثم الأنصار. وربما يفسر لماذا علق عمر - رضي الله عنه - جواب من يسأل عن المال على إتيانه إلي عمر. لأنه وحده القادر على مراعاة هذه القسمة تحقيقاً للعدالة وحفظاً لمنازل الصحابة رضي الله عنهم جميعاً.

ثم ربط عمر بين هذا الترتيب المشار إليه آنفاً وبين ما يليه من ترتيب بـ (ثم) التي جاءت بمعنى الواو لأنها عطفت على ما سبق جملة شرطية علق فيها الجواب بسببه في قوله:

(ثم من أسرع إلي الهجرة أسرع إليه العطاء)

وعطف على هذا التركيب الشرطي تركيباً شرطياً آخر بأداة الربط الإضافي أم الباب (الواو) جاء معناه مضاداً لمعنى التركيب السابق عليه ، وقد أفاد التضاد هنا تعليق سرعة نيل العطاء أو إبطائه على سرعة الطالب له وبطأه إلي الهجرة.

فقال: (ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء)

ثم عطف على التركيب السابق جملة نهية قامت منه مقام العلة والسبب مما جعل تركيب الشرط هذا أدخل في بلاغة العبارة وقوة تأثيرها في قوله:

(فلا يُلَوِّمَنَّ رجل إلا مناخ راحلته)

حيث ترى الفعل المضارع هنا مبنياً على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم بـ (لا) الناهية حيث دعا عمر - رضي الله عنه - هؤلاء الذين أبطأوا عن السعي إلي الهجرة ، فأبطأ العطاء عنهم ، أقول دعاهم عمر إلي لوم رواحلهم التي أبطأت بهم في إشارة بلاغية بيانية إلي تقاعسهم عن السعي إلي الهجرة.

كما أن في هذا الأسلوب قصر واختصاص من خلال أسلوب الاستثناء؛ حيث استثنى عمر لوم أي رجل فَعَلَّقَهُ على مناخ راحلته دون غيره من ألوان اللوم الأخرى إذ هو - أي مناخ الراحلة - مناط الإبطاء والإسراع بالراحلة نحو تحقيق الهدف من رحلتها !

ومن التراكيب المؤثرة في هذه الخطبة هذا التركيب الذي يرد في نهايتها في قول عمر - رضي الله عنه-: (وإني لن يحضرني من أموركم شئ فأكله إلي غير أهل الجزاء والأمانة ، فلئن أحسنوا لأحسنن إليهم ولئن أساءوا لأنكّلن بهم).

أما جمال التركيب في جزئه الأول فيتمثل في قوله: (وإني لله يحضرني من أموركم شئ فأكله إلي غير أهل الجزاء والأمانة) حيث حملت هذه الجملة دلالة النفي التأييدي من خلال الحرف: لن الذي ينصب المضارع ولكنه ينفي معناه على التأييد في المستقبل سواء كان قريباً أم استمرارياً. حيث نفت أن يحضر عمر أمر من أمور المسلمين ويكله إلي غيره أهل الجزاء والأمانة وقد أفاد هذا التعبير -هنا- تحري عمر ودقته في مراعاة حقوق المسلمين ولم يكتفِ عمر بالارتكان إلي توكيل أهل الجزاء والأمانة بما يحضره من أمور المسلمين، وإنما علق هذا التوكيل على مراقبتهم من خلال تركيبي الشرط اللذين ربطهما بأهل الجزاء والأمانة بالفاء المعقبة وربط بينهما بالواو الجامعة فقال:

(فلئن أحسنوا لأحسن إليهم ، ولئن أساءوا لأنكّلن بهم)

ويلاحظ على التركيب السابق اجتماع القسم والشرط فيه ومن ثم ، ولما كان سبق - هنا- للقسم كان الجواب له ، أما جواب الشرط فحذف دلّ عليه جواب القسم ولذلك فأنت تلاحظ أن الجواب في الجملتين هنا لم يفترن بالفاء.

فأما قول عمر - رضي الله عنه-: (فلئن أحسنوا لأحسن إليهم) فقد تصدرته اللام الموائمة للقسم ، وتلاها حرف الشرط (إنّ) ، مما ترتب عليه احتياج كل من القسم والشرط إلي جواب وتنازعا جواباً واحد وهو (لأحسنن إليهم) فلما سبق القسم الشرط صار الجواب له ومن ثم فلا محل له من الإعراب، وأما جواب الشرط فمحذوف بتأويل النحاة دلّ عليه جواب القسم المذكور هنا.

حيث علق عمر رضي الله عنه الإحسان إلي أهل الجزاء والأمانة على إحسانهم، وقد جاء بالماضي مع (إن) الشرطية التي تستعمل في الشرط غير المقطوع بوقوعه ، وذلك لإظهار الرغبة في وقوع الإحسان من أهل الجزاء والأمانة، وأنه ليس بالأمر المستغرب منهم إن وقع ومن ثم فسوف يكون جزاؤهم الإحسان إليهم أمّا قوله: (ولئن أساءوا لأنكَلَنَ بهم)

فإن مجئ الماضي هنا مع (إن) الشرطية قد أتى للتعريض حيث إن الغرض هنا هو التعريض بمن يسيئ من أهل الجزاء والأمانة ، حيث يكون عقابه التتكيل به! ولما كان المقطوع به أن أهل الجزاء والأمانة من المستبعد أن تصدر منهم إساءة ، ولن تصدر منهم أبداً ، فكيف إذا كان هذا التعريض بهم وهم على ما هم عليه من الجزاء والأمانة فكيف بغيرهم !!

والمعنى هنا: أنه إذا كان أهل الجزاء والأمانة سينكل بهم إذا أساءوا، فكيف بغيرهم . ثم إن في هذا الأسلوب تبليغ الغير العظة عن طريق غير مباشر. وهذا بالتأكيد أبلغ في النفوس وأعطف لها.

وهذه خطبة أخرى لعمر - رضي الله عنه- لعب فيها أسلوب الأمر دوراً في إنتاج دلالة التركيب ، حيث جاء أسلوب الأمر فيها لهدف بلاغي مفاده طلب الحمد من الله - سبحانه وتعالى - على مضمون جملة افتتاح النص التي قصرت الحمد لله من خلال قصر المسند إليه على المسند الذي طالت به موجبات الحمد إلي أن بلغنا أسلوب الأمر^(١).

يقول عمر - رضي الله عنه-: (الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه ﷺ ، فهدانا به من الضلالة ، وجمعنا من الشتات، وألف بين

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ٢١٧.

قلوبنا ، ونصرنا على عدونا ، ومكَّنْ لنا في البلاد ، وجعلنا به إخوانا متحابين فاحمدوا الله على هذه النعمة.

فأنت ترى أن موجبات قصر الحمد -هنا- ترجع - في هذا الموقف- إلي مجموعة من الأفعال التي جاءت في صيغة الماضي تمكناً من حيث أن الله - سبحانه- أعزَّنَّا وأكرمنا ، ورحمنا بنبيه ، وهدانا من الضلالة وجمعنا من الشَّتات، وألف بين قلوبنا ونصرنا ومكَّنْ لنا في البلاد ثم جعلنا بالإسلام إخوانا.

ويصح - هنا- أيضا أن تختزل نعمة الله علينا بأن جعلنا بالإسلام إخواناً، أقول تختزل هذه النعمة جميع النعم السابقة عليها مما جعلها تستوجب طلب الحمد نيابة عن بقية النعم المترتبة علي جعلنا إخواناً بالإسلام بسبب من الله - سبحانه وتعالى - ويدل على صحة ما نقول الضمير الذي لحق الجملة الأخيرة السابقة على أسلوب الأمر في قوله: (وجعلنا به إخوانا متحابين).

وقد جسد الحال في القول السابق معنى الإخوة في الإسلام فجعلها في الحبة التي يحرص كل مسلم أن يعطيها لأخوته المسلمين عن طيب خاطر.

وقد عطف على أسلوب الأمر أسلوب أمر آخر مفاده الحث على طلب السؤال إلي الله أن يمنح المسلمين المزيد من هذه النعمة الممثلة في الأخوة في الإسلام وكذلك حثهم على كثرة شكرهم عليها.

وقد أعقب هذا الأمر جملة تعليلية في قوله:

(فإن الله قد صدقكم الوعد بالنصر على من خالفكم.)

حيث تصدرت هذه الجملة فاء التعليل ، كما أنها جاءت مؤكدة ، تحت على الأمر وتدعو إلي امتثاله ، ومجيئها مؤكدة قد زاد من مساحة الحث والترغيب، فتوكيد تلك الجملة الدافعة إلي امتثال الأمر والحاثه عليه قد ساهم في بلاغة عبارة الأمر من خلال دفعها له نحو الإبانة والوضوح ، حيث إن طلب عمر - رضي الله عنه - من

الناس أن يحمدوا الله على نعمة الإسلام وأن يسألوه المزيد فيها والشكر عليها أقول سببه أن الله قد صدقهم وعده بالنصر على كل من خالفهم.

وقد عطف الخطيب على جملة الأمر السابقة أسلوب تحذير هدفه البلاغة إلى الإقلاع عن المعاصي ، وجود النعمة ، وقد علل الخطيب الأسباب التي دفعته إلى التحذير من جحود النعمة فقال:

(وإياكم والعمل بالمعاصي ، وكفر النعمة ، فقلما كفى قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم ، وسُلِّطَ عليهم عدوهم)

فأنت -أولاً- تلاحظ أن أسلوب التحذير مبنئ على معنى الأمر حيث يفيد التعبير بقوله: إياكم: إياكم احذروا ، وقد عطف عليه أسلوب تحذير آخر حذف منه صيغة التحذير لدلالة الأولى عليها خوفاً من ترهل الأسلوب.

وقد أعقب أسلوب التحذير الثاني الذي جاء مبتور الرأس (وكفر النعمة) أي وإياكم وكفر النعم ... أقول أعقب هذا في هذا الأسلوب جملة تعليلية مصاحبة له أفصحت عن قيمة التحذير ومدلوله في هذا الأسلوب في قوله:

(فقلما كفر قوم بنعمة ، ولم ينزعوا إلى توبة إلا سلبوا عزهم ، وسُلِّطَ عليهم عدوهم.)

حيث أفادت هذه الجملة التأكيد على أثر كفر النعمة على الكافر بها من خلال ضرب عمر - رضي الله عنه- المثل فيها بأن مألوف العادة أن جحود قوم - أيًا كان شأنهم- يدفعهم إلى ضرورة اللجوء إلى التوبة طواعية ، لأن شواهد الآيات تؤكد أن نفرًا ممن كفر بالنعمة - أيًا كانت ولم يتوبوا - حدث لهم أن جرّدوا من عزهم وسلطانهم ؛ وتحكم فيهم عدوهم. مع ملاحظة أنه قد تم التعبير عن عقاب هؤلاء النفر على قلتهم من خلال الفعل المبني للمجهول الذي يدفع بالفاعل نحو إرادة السماء من

خلال سلطان الله الذي لا يقهره سلطان، حيث أوكّل الله بهم عدوهم فقهرهم وغلبهم وساد عليهم !

وهذه خطبة لعمر - رضي الله عنه - تعدّ نموذجاً للإيجاز المفضي إلى دلالة عميقة، وقد قيل أن عمر - رضي الله عنه - خطب الناس فقال: ^(١)

(والذي بعث محمداً لو أن جملاً هلك ضياعاً بشطّ الفرات خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب)

فنحن - هنا - أمام خطبة يمثلها أسلوب قسم تكون من جملة قسم جاءت وهي قول عمر - رضي الله عنه -: (والذي بعث محمداً بالحق) حيث أفادت جملة القسم - هنا - التوكيد لمدلول جملة الجواب التي وقعت شرطاً غير جازم في قول عمر - رضي الله عنه -:

(لو أن جملاً هلك ضياعاً بشطّ الفرات خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب)

والتعبير بجملة الشرط غير الجازم بـ (لو) - هنا - يؤكد ولع عمر - رضي الله عنه - يتحرى الدقة في إخفاق الحق بين رعيته. حيث أفادت لو - هنا - كما يقول سيبويه: ما كان سيقع لوقوع غيره. حيث امتنع تحقق الجواب ووقوعه من كون أن يخاف عمر أن يسأل الله عن حيوان لا يعقل هلك ضياعاً بشطّ الفرات وذلك لامتناع وقوع معنى جملة الشرط المتمثل في أن يهلك جَمَلٌ بطريق الإهمال، وذلك لما عرف عن عمر من تحري الدقة في محاسبة نفسه ومحاسبة رعيته.

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ٢١٨.

وتطرح جملة جواب القسم الشرطية التي لا محل لها من الإعراب يطرح فكرة المسؤولية التي في عنق الحاكم ، وأنت ترى عمر هنا يكتفي عن نفسه بقوله (آل الخطاب) لا يعني به غيرها من ذوي قرينته وإن دَنَّتْ.

ومن دلالات أسلوب القسم الذي انطوى عليه المعنى في تلك الخطبة الموجزة أنه يرسخ فكرة الحق لدى عمر - رضي الله عنه- من خلال حرصه على الخوف المستمر من سؤال الله له عن حقوق الرعية عليه ، وقد جعل من بينها حقوق الحيوان ، فما بالك بالإنسان؟

وهذه خطبة أخرى من خطب عمر - رضي الله عنه-^(١) استهلها بالنداء من خلال الصيغة (أيها الناس) وهي صيغة يكثر مجيئها في الخطاب النبوي وخطاب الراشدين ويكثر مجيئها على النحو السابق بحذف ياء النداء. وقد رأيناها مثلاً تتكرر كثيراً في خطبة الوداع للنبي ﷺ ، وأنه يكثر مجيئها بعد الحمد والبعدية مجردة هكذا بدون حرف نداء.

ويغلب الظن أن البيان النبوي وبيان الراشدين يتأس في ذلك بأسلوب النداء بهذه الصيغة كما ورد في القرآن الكريم ؛ حيث يعد هذا الأسلوب من أساليب النداء الأكثر دورانا في القرآن الكريم حيث لاحظ أكابر علمائنا أن مرد ذلك يرجع للأهمية القصوى لمقاصد المعنى التي نادي بها الله سبحانه خلقه لسمعهم إياها.

ومجئ الخطاب بالنداء في نصوص تلك المرحلة ومنها نثر عمر - رضي الله عنه - بهذه الصيغة ←: (أيها الناس) - يهدف إلى التوكيد ولفت الانتباه للآتي بعدها بياناً لأهميته ، ولإيقاظ النفوس النائمة من غفوتها ! حيث: أي اسم منهم والهاء حرف تنبيه ، والناس على الأشهر صفة لأي رفعت عنها الإبهام.

(١) جمهرة خطب العرب: ج ١/ ص ٢١٨.

وقد تحقق الهدف من النداء بهذه الصيغة (أيها الناس) في الخطبة التي بين أيدينا ، وهو التوكيد ولفت الانتباه للهدف من قراءة القرآن وفق ما لاحظته عمر - رضي الله عنه - والذي تمثل في أمرين:

الأول: ظن عمر - رضي الله عنه - أن من قرأ القرآن إنما يريد به الله وما عنده في قوله: (إنه أتى على حين ، وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد به الله وما عنده).

وتكمن بلاغة النص السابق في قول عمر - رضي الله عنه - مخبراً عمن يقرأ القرآن من كونه: (إنما يريد به الله وما عنده) حيث أفادت (إنما) في القول السابق أمراً لا يجمله المخاطب ولا ينكره من كون أن من يقرأ القرآن إنما يقرأه يريد به وجه الله من حيث الثواب والجزاء.

وأن عمر - رضي الله عنه - لا يقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويقر به ، إلا أنه يريد أن ينبهه للذي يجب عليه من حق القراءة حين يقرأ. كما أن عمر - رضي الله عنه - لم يؤكد بقوله هذا تلك الحقيقة وهي أن قراءة القرآن تكون لطلب الثواب والجزاء الأوفى من الله. وأنه - أي عمر - لم يلتفت إلي حال النفوس المتلقية لها فيواجهها كما يقتضي واقعها ، وإنما خيل وأوهم أن هذه المسألة ينبغي أن تكون من المسلمات ، وأن المشاحة منها لا وجه لها، وأن من ينكر تلك الحقيقة لن يجد أدناً تسمعه وهذا وجه من المعنى لا يعطيه لك إلا (إنما) ، وأنت لا تجده لو قلت: (ما يريد به إلا الله وما عنده) وهكذا تجد المعنى في كل أمر تأتية من باب (إنما) (تجد النفي والاستثناء يسقط ما في هذا الأسلوب من هذا الإحساس والإيهام والوشوشة الخافتة بأن تلك حقائق ظاهرة لا وجه لإنكارها ، وهذا ضرب من

تقرير تلك الحقائق يفوق كل صور التوكيد، ثم هو ضرب من ثراء المعنى يَغْنَى به الأسلوب ويعظم سلطانه^(١).

أما الأمر الثاني: ما تخيله عمر - رضي الله عنه - من أن هماك أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس. ولعلك تلاحظ أن عمر - رضي الله عنه - لم يجزم بهذا الأمر ، وإنما بنى رأيه على ما شاهد ورصد وتوقع حيث يقول: (ألا وإنه قد خُيِّلَ إلى أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس).

ولك أن تلاحظ أن الجملة هنا قد استهلها عمر بأداة الحث والتنبيه (ألا) بخطورة المخبر عنه الذي أكده بمضمون الجملة الاسمية المنسوخة -هنا- وحرف التحقيق (قد) الذي تصدر الفعل الماضي المبني للمجهول (خُيِّلَ إلى) الذي أخفى الخطيب فاعله لتحقيق الإثارة المطلوبة وهو يناوش شعورنا ليصرفنا إلى المقصد الأهم وهو قراءة القرآن بهدف طلب ما عند الناس ، وقد أبهم هذا الذي طلبه هؤلاء الأقوام ، ليكشف عن ضالته وانعدام النفع به قياساً بما هو كائن عند الخالق جلا وعلا.

ويستأنف عمر حديثه بأسلوب استهله بالتنبيه على خطورة مضمونه، كما عطف عليه أمراً آخر تكررت فيه نفس صيغة الأمر (أريدوا) وذلك لتأكيد دلالاته وهي الحث والتوجيه واختلاف مضمون الأمر في كل جملة حيث يقول: (ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريده بأعمالكم ، فإنما كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل وإذ النبي ﷺ بين أظهرنا ، فقد رُفِعَ الوحي ، وذهب ﷻ).

ويستوقفنا في هذا المجتزأ من خطبة عمر - رضي الله عنه - عدة أمور:

(١) محمد أبو موسى: دلالات التراكيب: ص ١٥٩-١٦٠.

أولاً: دلالة الفعل (أريدوا) حيث إنها تعني الحب ولا شئ غيره وقد حصرته في قراءة القرآن فهو مآدبته ، وعندما تكرر هذا الفعل طالبنا عمر بأن نحب الله بأعمالنا. أي دعانا عمر إلي أن يترجم الحب إلي عمل وسلوك.

ثانياً: تصدرت فاء العلة جملة الأمر حيث أبرز مدلولها ضرورة أن تزيد مساحة الحب التي في صدور المسلمين لله بقراءة القرآن . وأن تكون قراءة القرآن عنواناً لهذا الحب. وكذلك لا تختلف دلالة جملة المعطوف عليه حيث تدعونا هذه الدلالة إلي أن الأعمال دليلاً على حب الله في كل وقت!

ثالثاً: أعقب أسلوب الأمر جملة تعليلية مؤكدة زادت من الحث على هذا الحب في القراءة للقرآن ، والعمل بكافة مستوياته حيث أفادت هذه الجملة التي امتد معناها عبر الإضافي من خلال الواو ، ثم الفاء التي أفادت الترتيب والتعقيب في قوله: (فقد رفع الوحي ، وذهب النبي ﷺ) أقول أفادت أن عمر وغيره من صحابة رسول الله ﷺ كانوا يعرف الناس من خلال ما كان ينزل من الوحي أو من خلال رسول الله ﷺ ، وبالتالي أصبح على كل مسلم أن يعبر عن حبه من خلال قراءته للقرآن ومن خلال سلوكه أيضاً.

وتستوقفنا دلالة القصر والاختصاص بـ (إنمّا) في قول عمر - رضي الله عنه -: (فإنمّا أَعْرِفُكُمْ بما أقول لكم). حيث أفاد القصر - هنا- تنبيه المخاطبين للذي يجب عليهم من حق إخبار عمر - رضي الله عنه- لهم بأنه يعرفهم بما يُملّيه عليهم من قول ، وأن هذا الذي يملّيه عليهم من أمر معرفته لهم في حكم الظاهر المعلوم حيث علق هذه المعرفة على ما يقوله لهم ، فصار لا ينكر ولا يَخْفَى ولا يُدْفَع.

وتستوقفنا دلالة التركيب الشطي في تلك الخطبة في قول عمر - رضي الله عنه - (فمن أظهر لنا خيراً ظَنَنَّا به خيراً وأُثْنِينَا به عليه. ومن أظهر لنا شراً ظَنَنَّا به شراً ، وأَبْغَضْنَاهُ عليه)

حيث يوجد ربط صوتي من خلال التوازي التركيبي بين جملتي الشرط الذي جاء متطابقاً وحقق درجة من درجات الألفة لدى المتلقي ساهمت في تلقيه للمعنى.

كما عُلّقَ مضمون جواب الشرط في الجملتين على مضمون معنى الشرط في الجملتين من حيث من كون أن الظن الخير والتناء عليه معلق على ما يظهره الإنسان من سلوك خير وكذلك الظن بالشر في الإنسان معلق على ما يظهر من سلوكه مطبوعاً بالشر ، مما يحملنا على كرهه.

ويأتي أسلوب الأمر الذي أعقب جملة الشرط الثانية في القول السابق ليحثنا على ردع النفوس المجبولة على فعل الشر ، لأن الشر شهوة مدمرة غير منتجة، ويرر - لنا - ذلك فقال:

(اُدْعُوا هذه النفوس عن شهوتها ، فإنها طُلْعَةٌ ، وإنكم إلا تَقْدَعُوهَا تَنْزِعُ بكم إلى شَرٍّ غاية)

وقد أفاد الفعل (اُدْعُوا) دلالة الكف والمنع ، وقد أفادت الجملة المؤكدة في قوله (فإنها طُلْعَةٌ) إلى تأكيد هذا الأمر وضرورة الدعوة للامتنثال له وذلك لأن النفس البشرية تتطلع دائماً وتنزع نحو الإفراط في الشهوة ، وقد عطف على هذه الجملة المؤكدة جملة حذر فيها من التقاعس عن كف هذه النفوس ومنعها وهي جملة شرطية في قوله:

(إلا تَقْدَعُوهَا تَنْزِعُ بكم إلى شَرٍّ غاية)

حيث عُلّقَ نزوع النفس بصاحبها إلى أسوأ مآل على تقاعسه عن كفها وزجرها وتهذيبها ورياضتها.

وفي ختام الخطبة نجد عمر - رضى الله عنه- قد وضع أمامنا صورتين أحدهما للحق والأخرى للباطل ليبيني من خلال أسلوب التضاد عالماً يناوش من خلاله الوجود الإنساني الذي جيل الخلق فيه على أن يتنازعهم الحق والباطل، ورسم

للحق صورة أفضت بصاحبه إلي عاقبة محمودة كما رسم للباطل صورة أفضت بمعتقه إلي عاقبة وخيمة سيئة فقال:

(إن هذا الحق ثقیل مرئ ، وإن الباطل خفیت وبئ)

فأما كلمة مرئ في الجملة الأولى فتعني: العاقبة المحمودة ، وأما كلمة: وبئ: فتعني سوء العاقبة.

وجعل الحكمة ختام خطابه في الناس ، ذلك قوله:

(وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً.)

ففي كلمات قليلة المبنى يطرح عمر -رضي الله عنه- معنىً كبيراً يدعونا فيه إلي امتلاك إرادة تجنب الوقوع في الخطيئة ، وجعل هذا الأمر حال تحققه أحسن من طلب التوبة حال الوقوع في الخطيئة ، وحذرنا من شهوة تصنعها نظرة ، وقد جاء تتكير كلمة (شهوة) لإفادة العموم والشمول لكافة أنواع الشهوات، مع ما تدل عليه الكلمة من اشتياق النفس إلي الشيء والتلذذ به، والرغبة فيه ، ثم إن إضافة شهوة إلي ساعة باعتبارها دالة زمانية محدودة يكشف عن ضآلة قدرها لأنها تخلف في النفس حزناً طويلاً.

وهكذا حاولت هذه الدراسة الكشف عن حدود العلاقة بين نظام الجملة النحوي وتركيبها البلاغي على نحو أفضى إلي كثير من جماليات المعنى في النص النثري ومقاصد الدلالة.

مصادر البحث ومراجعته

أولاً: مصدر الدراسة:

جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة. الجزء الأول.

لأحمد زكي صفوت ، الطبعة الأولى ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥م.

ثانياً: المصادر:

١. الإيضاح للخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ):

تحقيق ودراسة عبدالقاهر حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٩٦هـ.

٢. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادي

(ت ٨١٧هـ) ، تحقيق: محمد علي النجار ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٣هـ.

٣. الجني الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي

(ت ٧٤٩هـ) تحقيق: فخرالدين قباوة ومحمد نديم فاضل ، حلب ، ١٩٧٣م.

٤. دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني قراءة وتعليق محمود شاكر.

طبعة مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠م.

٥. شرح المفصل لابن يعيش ، (ت ٦٤٣هـ) ، عالم الكتب ، د.ت

٦. الطراز ليحيى بن حمزة العلوي. تقديم إبراهيم الخولي ، سلسلة الذخائر (١٨٧) ،

الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٩م.

٧. الكتاب لسيبويه (ت ٥٨١هـ). تحقيق: عبدالسلام محمد هارون ، دار الكتب

العلمية ، بيروت ، ١٩٨٢م.

-
٨. كتاب الصناعتين الكتابية والشعر لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) حققه وضبط نصه مفيد قميحة ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٨٩م.
 ٩. كتاب الفردة المسماة بالبردة في مدح أشرف عدة لأبي عثمان سعد ابن يوسف الألييري الغرناطي. تحقيق ودراسة: علي الغريب محمد الشناوي ، الطبعة الأولى ، مكتبة الآداب ، ٢٠٠٦م.
 ١٠. الكشف عن الحقائق غوامض التنزيل للزمخشري (ت ٥٢٨هـ)، دار المعرفة د.ت.
 ١١. مغني اللبيب عن صناعة الأعاريب لابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) ، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد ، المكتبة العصرية، بيروت ، ١٩٩٧م.

ثالثاً: المراجع:

١. البديع تأصيل وتجديد لمنير سلطان ، منشأة المعارف بالأسكندرية، ١٩٨٦م.
٢. بناء الجملة العربية لمحمد حماسة عبداللطيف ، دار غريب بالفجالة، القاهرة ، ٢٠٠٣م.
٣. بلاغة العطف في القرآن الكريم دراسة أسلوبية لعفت الشرقاوي، دار المنهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨١م.
٤. التوازي في ديوان أبي القاسم الشابي لمحمود سليمان الجعيدي، ملحق بمجلة كلية الآداب بالمنصورة ، العدد الحادي والثلاثون، أغسطس، ٢٠٠٢م.
٥. خصائص التراكيب ، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، لمحمد أبوموسى ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٨٠م.
٦. دلالات التراكيب دراسة بلاغية لمحمد أبوموسى ، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٩م.
٧. علم اللغة العربية بين التراث والمناهج الحديثة. لمحمود فهمي حجازي ، دار غريب بالفجالة ، القاهرة ، ١٩٩٥م.
٨. قراءة النص في ضوء علاقته بالنصوص المصادر لعبدالرحمن بسيسو ، مجلة فصول مج ١٦ ، ١٤ ، القاهرة ١٩٧٧م.
٩. النثر في عصر صدر الإسلام وبنى أمية لعلي الغريب محمد الشناوي، دار الأصدقاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، ١٩٩٩م.
١٠. النحو العربي ، الجزء الخامس لإبراهيم بركات ، دار النشر للجامعات ، القاهرة ، ٢٠٠٧م.